ماهية الجنون وتاريخه

—(١)—

تكلمت في محاضراتي السابقة عن المسكرات الغولية والكوكائينية . ومما قلته في نتائجها ان إدمانها يؤدي الى فساد الأخلاق واستحالة العنصر والجنون وقد رأيت من الضروري قبل متابعة هذا البحث ان أقول كلمة في ماهية الجنون وتاريخه لما في هذا المسمى من الغموض الناشئ عن خروج هذه الكلمة عن معناها الحقيقي ، وعدم فهمها بمعناها العلمي ، على ان أعود بعد ذلك الى درس بقية السموم النفسية فأقول :

تتألف حياة الانسان من أفعال عضوية حسية وحركية ومن أفعال نفسية ، منها العقل . وأهم عناصره : الذاكرة ، والانتباه ، والإدراك ، والشعور ، والقياس ، والحكم . ومنها الفاعلية ومن عناصرها الارادة . ومنها الانفعالية ومن عناصرها العواطف والشهوات والميول .

وكما ان الأفعال العضوية تختلّ وتمرض ، كذلك يعتري الافعال النفسية تغير ، منه النقص ، ومنه الازدياد المرضي ، ومنه الفساد . فاذا نقص عقل المرء يصبح معتوهاً أو أبله أو أحمق ، واذا نقصت إرادته يصير موسوساً قلقاً وهن النفس ، واذا نقصت انفعاليته يمسي مجذوباً لا يبالي ولا يكترث بامر من امور الحياة . وكذلك يقال في ازدياد هذه الأفعال ، فاذا وقع الاحتداد في الافعال العقلية يصبح المرء نشطاً كثير الكلام سريع الجواب شديد الحركة لا يستقر على حال . يتحرش بالناس أشبه به (بزنبرك) الصندوق الحاكي اذا أفلت من عقاله ، يكثر لفظه ويقل معناه . واذا حصلت الحدة في الفاعلية

---

(١) محاضرة للاستاذ الدكتور أسعد بك الحكيم ألقيت في ردهة المجمع العلمي في ٢٨ تشرين الثاني سنة ١٩٣١

يمسي صاحبها سريع الغضب بطاشاً متجهماً أزور . ويولد فرط الانفعالية : أنواع الخوف وشدة التأثر والهستريا . أما فساد هذه الافعال فينشأ عنه الهذيان وأنواع الجرائم وسوء الخلق على تنوعه .

تلك هي الحالات النفسية الشاذة التي تطلق عليها كلمة الجنون . وقد جعل بعض الكتاب العبقرية أو النبوغ من أقسام الجنون بدعوى انها زيادة في الأفعال العقلية ، وهذا خطأ فادح ، لان الزيادة المقصودة في هذا البحث هي الزيادة المرضية التي تشبه سرعة حركة الصندوق الحاكي عندما يفلت زنبركه .

ومن المخجل المبكي ان البشرية حتى أوائل هذا العصر لم تعن بغير صحة الجسم ومكافحة الأمراض العضوية ، مهملة صحة النفس التي منها يتألف كيان الأم الأدبي والعلمي والصناعي والاجتماعي . ومن مفاخر القرن العشرين تلافيه هذا النقص وأخذه بمعالجة الأدواء النفسية كسائر الأمراض العضوية . وما اتحاد الامم العظمى في منع المسكرات وتحريم المخدرات ومكافحة الامراض الاجتماعية الا مظهر من مظاهر هذا الجهاد المدني الحديث المقدس .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وبعد هذه المقدمة الوجيزة أدخل في صميم الموضوع فأقول :

ان تاريخ الامراض النفسية والمصابين بها مرتبط من حيث التطور العلمي والاجتماعي بتاريخ البشرية العام ارتباطاً محكماً يصح معه ان يقال : ان تاريخ الجنون والمجانين هو تاريخ العلم والاجتماع والعكس بالعكس . وذلك لان الجنون من حيث انه علم يدلنا تاريخه على مقدار ما أدركته العقول البشرية من حقائقه عند كل أمة وفي كل عصر ، كما ان المجنون من حيث انه انسان فقد احدى مميزاته النوعية بعامل المرض فأصبح غريباً عن البيئة بمظاهره وأقواله وأفعاله يطلعنا تاريخه على الأنظمة الاجتماعية والقوانين المدنية والعواطف والمشاعر الانسانية في مختلف مراحل التاريخ وعند جميع الشعوب . وعلى هذا يمكننا القول : ان أرقى عصور البشرية علماً هي التي عرفت فيها ماهية الجنون وان أبهى أيام البشرية حضارة هي التي عومل فيها المجنون معاملة المرضى بالرأفة والشفقة والاحسان . ونظرة عامة في صفحات التاريخ تكفي لاثبات هذه الحقيقة الراهنة .

* * *

الجنون في العصور القديمة . — كان الانسان أيها السادة في عهده الاول ضعيف الخبرة قليل التجربة لايستقرأ الحوادث ولايختبرها بل ينظر اليها بعين عقيدته فيؤولها حسب مايوحيه اليه الوهم والخيال . وبالنظر لما كان عليه من الايمان بسيطرة الارواح والشياطين على العالم كان يعتقد بان الجنون مسّ شيطاني فيعالجه بالسحر والعزائم حيناً حتى اذا أشفى بعمد الى ظره اي حربته الصوانية فيشج بها رأس المجنون ليخرج منه الشيطان الشرير .

ثم لما ارتقت مدارك البشر وتبدل الاعتقاد بماهية الالوهية ذهب الانسان الى ان الجنون من غضب الآلهة فراح الى الكهنة والعرافين يتقرب بهم اليها لخلاصه فيتديرونه بالتعاويذ والرقى والطلاسم والقرابين وغيرها . وفي تاريخ العبرا نيين أمثلة كثيرة على هذا المعتقد فقد قيل في شاوول ان الشيطان احتل جسده عندما قاصه يهوه (أي الاله) وهجره كما قيل في بختنصر ان أنامل الرب لمسته فقلبته وحشاً .

***

الجنون والمجانين عند اليونان . — وقد كان اليونانيون يعتقدون بان من الجنون ماهو آلهي فيكرمون صاحبه اكرامهم بتي الدلفية التي كان يهتف ابولون بفيها . ومنه ما هو شيطاني يمت صاحبه بصلة الى الارواح الخبيثة فينفرون منه ويتعهدونه بانواع العذاب والقتل . وهنالك نوع ثالث وهم الأبرياء الذين مسهم الشيطان بضر فقد كان الكهان يتدبرونهم في الهياكل بانواع الطقوس الدينية وغيرها .

ويظهر أن اول من عالج الجنون بالعقاقير عند اليونانيين ملابيوس الارغومي سنة (١٥٢٦) ق . م فقد شفى بنات فيتوس ملك الارجيين بمعالجتهم بالخربق والاستحمام بالمياه الحارة . ثم جاء اورفي (Orphée) فعالج المجانين بالرقى والموسيقى . وعقبه شيرون (Chéron) ثم تلميذه اسقليبوس (Esculape) الملقب بآله الطب (١١٤٣) ق . م الذي نحتت له التماثيل وشيدت الهياكل في كنيد وكوس ثم ايدور .

وقد كانت هذه الهياكل ملاجئ للمرضى، لا سيما للمصابين منهم بالجنون والآفات العصبية فانهم كانوا يؤمونها من كل حدب وصوب حاملين اليها ما تقوى عليه أيديهم من الهدايا والنذور والقرابين فيتدبرهم الكهان فيها بالطقوس الدينية الغريبة الشكل . وقد

كان يعالجهم اسقليبوس وتلاميذه بالمؤثرات الطبيعية والرياضة البدنية والملاهي المختلفة كالغناء واللعب وغيرهما ·

أما ماهية الجنون العلمية فقد ظلت مجهولة مدى تلك العصور الطويلة · ولذلك كان المصابون ببعض أنواع الهذيان والذين يرتكبون جناية بدافع المرض يعاقبون كالاصحاء باشد أنواع العذاب كالسجن والقتل والجلد والحرق بالحديد المشتعل · وقد كان الرومان يلقون بهم مابين مخالب السباع الضارية أيام الاعياد ويتلذذون بمشاهدة تمزيق أوصال أولئك المرضى الابرياء من أعلى شرفات مسارحهم مما ينكره العلم ويتفطر له قلب الانسانية · وهذا دليل على سيادة الجهل وتأخر العلم والمدنية في تلك العصور الغابرة · وقد ظل الاعتقاد سائداً عند جميع الشعوب على اختلاف مواطنهم بان الجنون آلهي أو شيطاني حتى سنة (٤٠٠) ق · م حيث أتى أبقراط الذي انتهى عنده عهد طب الأديرة والهيا كل فقد مزق باشعة حكمته أضاليل تلك العصور ، وأماط عن حقيقة الجنون اللثام فقوض دعائم الاعتقاد بمصدره الشيطاني وأوضح بانه مرض كسائر الأمراض مركزه الدماغ · وان الدماغ هو العضو الذي يهذى به الانسان ويتأثر ويخاف ، ويتكر ويفهم ، ويميز الخير من الشر الى غير ذلك من الحقائق العلمية الفسيولوجية والتشريحية · وقد وصف أبقراط أنواع الجنون المهمة كالمانيا والماليخوليا والصرع والاعصبة (Névroses) اي مرض الاعصاب وقلنا فيها عُصاب كما يقال كُباد وكُلاب على القياس ووصف الهذيان الحاد المترافق بالحمى وأسماه الفرانيطس · وذكر ايضاً الانفسة التي تنشأ عن الحمل والحمى (Psychoses) وهي جمع نُفاس اي مرض النفس اشتقاقاً على القياس وقد وضعتها لعدم وجود كلمة تدل على هذا المدلول سواها · وكان يداوي هذه الادواء بالفصد والمسهلات والمقيئات والحمية والرياضة البدنية والموسيقى والسباحة والخربق وغيرها · ووصف أبقراط ايضاً الهستريا وجعل منشأها الرحم ولذلك دعاها اختناق الرحم · فهو والحالة هذه ابو الطب ومبدع الطب النفسي ·

* * *

الجنون والمجانين عند الرومان ·— ثم انتقل الطب الى روما فظهر سنة (٨٠) ق · م اسقليبدس (Asclépiade) فقسم الجنون الى جنون حاد مع حمى اوفرانيطس والى جنون

مزمن بلا حمى ومنه المانيا والماليخوليا . وفرق ما بين الوهم (Halluciuotion) والتخيل (illusion) . وفي سنة خمسة قبل الميلاد قال سلز (Celse) بتقييد المجانين بالسلاسل وقصاصهم . ثم ظهر غوليوس اوراليوس (Cœlius Auréliauus) فاشتغل بمعالجة الامراض النفسية بصورة خاصة ودعا الى معاملة المجانين باللين والحسنى . وأبلى في مقاومة الفكرة القائلة بغلهم وتعذيبهم ومعاملتهم بالشدة والقسوة بلاءً حسناً . وقد كان لا يجيز استعمال الربط الا في حالات الهياج الشديد على ان تكون من القماش اللين اللطيف وبصورة لاينال بها جسم المريض اذى .

وفي سنة ١٣١ أتى جالينوس فلم يزد في طب النفس على ماجاء به أسلافه شيئاً يستدعي البحث أو الذكر .

هنا انتهى عصر العلم اليوناني الروماني الزاهي ذلك العصر الذي أضاء سماء العالم بنور العلم الصحيح فهداه الى محجة الصواب ومعرفة الحقيقة ، وبدأ زمن الفترة ، زمن التيه الذي ضل به البشر ستمائة سنة في غياهب الجهل الناشئ عن الحروب والفتن الدينية والمذهبية ، فتوقف نمو العلم واضطهد رجاله وأخذ بالتقهقر والانحطاط ، وتطرق اليه الفساد واستولى عليه الكهان وأعادوه الى المعابد والهيا كل ثانية ، فذوى بعد النضارة وأقفر بعد الخصب ، وعاد العالم الى ظلمة الجهل الاولى ورجع اليه الاعتقاد بان مصدر الجنون آلهي أوشيطاني ، ففتحت للمجانين أبواب الأديرة والصوامع يجلون فيها المصابين منهم بالهذيان التصوفي والديني . اما المصابون بالهذيان المخالف للشرائع والمعتقدات فقد كانوا يزجون في أعماق السجون يلاقون فيها أشد أنواع العذاب ؛ وبالنظر لما كان يلاقيه الحكماء في هذا العهد من الجور والاضطهاد هاجر عدد منهم الى الشرق وأسسوا في جنديسابور مدرسة للطب كان لها في نقل العلوم الى العرب الحظ الأوفر .

* * *

الجنون والمجانين عند العرب . — وهنا على ذكر العرب نترك الغرب هنيهة يتخبط في ظلمة جهله ، وننتقل برهة الى الشرق ، الى تلك الدهناء القاحلة لنشاهد المجنون بهيم في فلواتها على وجهه ولارادع ولازاجر ، ثم لنراه ممسوساً ومن حوله الكهان والعرافون . وعليه التمائم والطلاسم ، وأمامه النار يتصاعد منها دخان العود والند ، يعزمون بها على

الجني ليخرجوه من ذلك الجسم الضعيف ، ثم لنبصره مريضاً في مستشفيات بغداد ودمشق ومصر وقرطبة مضطجعاً على فرش من القطن اللين في ردهة يتنازع جوها الهواء والنور ، وأمامه الرازي وابن سينا ومهذب الدين عبد الرحيم وابن زهر وغيرهم ومن حولهم الخدام والمشارفون يتعهدونه بانواع الاشربة المسكنة والمرطبة ، ويغذونه بمرق الدجاج وأنواع الالبان بينما الموسيقى تصدح خلفه بالحانها الشجية . ثم لنحفظه وقد تحولت تلك المصحات الى مجازر مظلمة مكبلاً كالوحش الضاري بالسلاسل والاغلال عاري الجسد تنهال عليه زبانية العذاب بالسياط كما تحلل أو صاح والناس من حوله يقهقهون ويسخرون . وهنالك نقف ونتساءل : ألا يوجد مابين تعريف الجنون ومعاملة المجنون عند الامة الواحدة وبين الرقي العلمي والاجتماعي فيها صلة تصح أن تكون معياراً أم لا ؟ هنالك نلتقي بالغرب حيث تركناه يتخبط في ظلمة جهله ، فيسير هو . ونقف نحن .

كان العرب أيها السادة في عصر جاهليتهم يعتقدون كسائر الامم القديمة بان الجنون شيطاني فيعالجونه بالرقى والتمائم والنذور والسحر والعزائم ، وقد ظل هذا الاعتقاد سائداً عندهم حتى الصدر الاول من الاسلام ، فقد جاء في شعر مجنون بني عامر :

وجاؤا اليه بالتعاويذ والرقى وصبوا عليه الماء من ألم النكس
وقالوا به من أعين الجن لحظة ولو عقلوا قالوا به أعين الانس

وقد كان يقوم بمهام هذه الصناعة الكهان والعرافون ، وكانوا يطلقون كلمة الجنون على جميع الآفات النفسية حتى على العشق ، وينعتون بالجنون كل من يخالفهم في عاداتهم فيجيء بما ينكرون ، ولم ينقل عنهم انهم كانوا يؤذون مجانينهم بظلم وتعذيبهم بل كانوا يطلقونهم يهيمون على وجوههم حيثما شاؤا فيعترضهم الصبية يسخرون بهم ويضحكون منهم كما هي الحال اليوم في كثير من المدن الشرقية . ثم لما أضاء الاسلام بصائرهم ضربوا في طول الارض وعرضها فقوضوا عروش القياصرة والاكاسرة وأسسوا في هنة من الزمن مملكة عظيمة ذات حضارة ومدنية رفيعة لم تسبقهم الى مثلها أمة من الامم . واتجهت أبصارهم الى العلوم الطبيعية والعقلية فألفوها حيث تركناها في هذا البحث مهجورة منبوذة تفتك في صحفها عوامل الاهمال والنسيان ، فاتجهوا اليها بكليتهم واستخدموا في سبيل جمعها وإحيائها كل ما أوتوه من سلطان شامخ ، ومال زاخر ، ومجد باذخ ، فنبتت بذور العلم القاحل ثمة

تزهو بالوان عربية جديدة في جميع الممالك الاسلامية، وشيدت فيها المستشفيات الواسعة الأرجاء ودور الحكمة والصيدليات ومجالس الادب والمناظرة . وعاد الطب النفسي الى سيرته اليونانية الرومانية الاولى فعرف الناس ان الجنون مرض كسائر الامراض الجسمية، وان مركزه الدماغ ، وعالجوه بالادوية والتدابير الصحية والعوامل الطبيعية والتلقين ، وجعلوه فرعاً من فروع الطب ممتزجاً بفرع الجهاز العصبي كما هو عليه اليوم ، وأدخلوه المستشفيات العامة ، وخصصوا له فيها غرفاً خاصة كانوا يسمونها غرف الممرورين، والفوا في بعض أبحاثه كتباً خاصة . قال ابن ابي أصيبعة في عيون الانباء : «شاهدت يوماً شيخي مهذب الدين عبد الرحيم في البيمارستان النوري في دمشق ، وقد دخل قاعة الممرورين فرأى فيها رجلاً مصاباً بالمرض المعروف بالمانيا وهو الجنون السبعي فوصف بان يضاف الى ماء الشعير في وقت إسقائه اياه مقدار متوفر من الافيون ، فصلح ذلك الرجل وزال ما به من تلك الحال» . وذكر ايضاً : ان الطبيب موفق الدين عبد اللطيف البغدادي كتب مقالة في المزاج ومقالة في البرسام ومقالة في العلة المراقية . وان جبريل بن بختيشوع شفى جارية للرشيد كانت مصابة بشلل هستريائي بصدمة نفسية . وقال ابو القاسم النيسابوري في كتابه عقلاء المجانين : دخلت البيمارستان في البصرة فشاهدت في المجانين الخ [1] مما يدل دلالة واضحة على انه كان يوجد في المستشفيات في ذلك العهد غرف خاصة بالامراض النفسية ، وعلى إدراك الاطباء ماهية الجنون وعدم تفريقهم بينه وبين سائر

(١) وجاء في كتاب الجوامع والمدارس صورة وقف البيمارستان القيمري وهي : هذا وقف ابي الحسن بن ابي الفوارس القيمري على بيمارستانه في الصالحية على معالجة المرضى والمعاجين والاشربة وأجرة الطبيب ، يصرف الى الطبيب في كل شهر لواحد سبعون درهماً ونصف غرارة من قمح وللمشارف كذا وللكحال كذا وللحوائج كذا والى ثلاثة رجال كذا ولمن يقوم بمريضات النساء والمجنونات في كل شهر لكل واحدة عشرة دراهم وسدس غرارة قمح الخ ... وجاء في خطط الشام : في صك وقف احد المستشفيات في حلب بان كل مجنون يخص بخادمين فينتزعان عنه ثيابه كل صباح ويحممانه بالماء البارد ثم يلبسانه ثياباً نظيفة ويحملانه على أداء الصلاة ويسمعانه قراءة القرآن ، بقراءة قارىء حسن الصوت ثم يفسحانه في الهواء الطلق ويسمع في الآخر الاصوات الجميلة والنغمات الموسيقية الطبية .

الامراض الجسمية من حيث الماهية ، وعلى إهتمامهم بدرسه ومعالجته بالطرق العملية الفنية مما لم يوفق الطب الحديث الى مثله الا منذ بضع سنين ، هـذا وبالنظر لبلوغ الممالك الاسلامية في ذلك العهد درجة رفيعة في الحضارة والمدنية اللتين من لوازمها النظام والامن لم يعد من الممكن ترك المجانين مطلقين يطوفون في المدن كما كانوا عليه في الزمن السابق وكما هم عليه اليوم في البلاد الشرقية ، وذلك لما يظهرون به من المظاهر المخالفة للحشمة والآداب العامة ، ولما يأتونه من الاعمال المخلة بالانظمة والادارة والمقلقة لراحة الناس ، فأمر المنصور العباسي بان تبنى لهم دور خاصة يحجر عليهم فيها منعاً لاضرارهم والاضرار بهم ، فشيدت في كل بلد من البلاد الاسلامية دار للمجانين . واذا تصفحنا كتاب عقلاء المجانين لابي القاسم النيسابوري نجد فيه ذكر كثير من هذه المؤسسات الخيرية في جميع المدن العربية كدار المجانين في الموصل وفي البصرة وفي نيسابور وفي الشام وبغداد ومصر وغيرها . وللمنصور الفخر الاعظم بانه لم يسبق الى مثل عمله هذا في تواريخ الامم المتقدمة .

وقد نبغ في الطب في هذا الدور في البلاد الاسلامية أطباء عظام خلدالتاريخ ذكرهم منهم الشيخ الرئيس ابن سينا والرازي والمجوسي وابن زهر وغيرهم ، فقد أضاف كل منهم الى ما كتبه من الموسوعات الطبية فصولاً ضافية في الامراض النفسية تدل دلالة واضحة على سعة علم وكبير دراية وخبرة وحذق وتجربة في هذا الفرع الطبي .

هذا وبالنظر لما للطب النفسي من الصلة المباشرة بعلم النفس تناولته أقلام كثير من العلماء والفلاسفة والادباء غير الاطباء فألفوا في قسمه الادبي كتباً على غاية من الاجادة ، من ذلك كتاب الحمق والمغفلين الذي وضعه ابوالفرج عبد الرحمن بن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ فهو من خيرة ما كتب في الحمق وتعريفه ووصفه حتى اليوم . ومنها كتاب عقلاء المجانين وكتاب الاذكياء الذين وضعهما ابو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري المتوفى سنة ٤٠٦ فقد أتى في مقدمتهما على تعريف الجنون وأسمائه وضروبه والذكاء وأقسامه مما يدل على ان معرفة ماهية الجنون لم تكن خاصة بالاطباء بل كانت عامة تتناولها أقلام الكتاب والادباء وألسنة الناس في سمرهم ومجالس لهوهم في ذلك العصر الزاهر .

غير ان العوامل الزمنية التي قضت على حكمة أبقراط وتلاميذه لم تشأ الا أن تتطرق

الى هذه المدنية العربية الفتية وتفسدها وتشوه من محاسنها . فقد أصاب المسلمين في بدء نهضتهم ما أصاب غيرهم من الاختلاف والتشعب في الطرق والمذاهب التي كان من نتائجها السيئة انصراف النـاس عن العلم واشتغالهم بالبدع . نذكر من ذلك العود الى الاعتقاد بان الجنون روحاني أوشيطاني والاخذ بمعالجته بالطلاسم والحجب والتمائم والرقى والعزائم وغير ذلك مما حمل الغربي في العصر الاخير على القول بان الاسلام ينظر الى المجاذيب كأولياء مقدسين ، بينما هذا الظن فاسد يدحضه على ما أتينا على ذكره مما كان عليه الجنون والمجانين عند المسلمين وخلفائهم في صدر الاسلام . ولعل السبب في حرمة فريق من العامة لبعض المجاذيب ان العقلاء من رجال الدين والتقوى في ذلك العصر المتأخر ساءهم مايشاهدونه من ازدراء الناس بالمجانين وتعرضهم لهم بالاذى والهزء والسخرية بهم مما تنكره الشريعة الاسلامية التي تأمر بالاحسان والمعروف وتنهي عن الشر والاذى فأخذوا يرشدونهم بقولهم : ماهؤلاء الا عباد الله فلا تسخروا بعباده وأحسنوا اليهم يحسن الله لكم الى غير ذلك من عبارات الوعظ الصالح الذي أساء العامة فهمه ولم يحسنوا العمل به .

قال الطبيبان لوف وسيريو (Lwoff et Sérieux) اللذان أوفدتها وزارة المعارف الافرنسية الى مراكش سنة ١٩١٠ لدرس الامراض النفسية فيها وكيفية مداواتها في كتابهما المسمى المجانين في مراكش مانصه :

« اذا صح القول بان اسعاف المرضى بالآفات النفسية ومداواتهم مفقودان في مراكش فان السبب في ذلك ليس ناجماً كما يظن عن عدم تلائم بين الاسلام ومداواة الامراض النفسية ، بل يمتّ الى مصدر واحد : هو هوة الانحطاط التي تتدهور فيها مراكش منذ عهد بعيد ، فان عصيان القبـائل المتواصل والحروب الاهلية التي يثيرها ذوو الاغراض وعدم استقرار البلاد من جراء مطامع الدول الاجنبية المتسلطة يستغرق كل فاعلية الحكومة الشريفية ، كما ان قلة موارد البلاد وعدم الثقة بالغد والفوضى الضاربة في جميع أنحاء البلاد تعلل لنا عدم اكتراث السلطة المركزية الموقتة بكل مايتعلق بالاسعاف العام .

أضف الى ذلك اندثار التعليم الطبي منذ عصور كثيرة واندثار دور العلم التي كانت مدارس العالم الاسلامي العظمى في العصور المتقدمة مما قضى على جميع المبادئ العلمية

المتعلقة بالامراض النفسية ومداواتها · وفسح مجالاً لاستيلاء أضاليل الاولين وخرافاتهم على أذهان النـاس · وعلى ذلك نقول : ان أحوال المجانين الحاضرة في مراكش تنسب الى أسباب اجتماعية فقط وليس الى أسباب دينية ·

« هذا وان تاريخ الحضارة الاسلامية يطلعنا على ان الاسلام لم يهمل العناية بالمجانين البتة ، ففي العصور التي كانت تعد فيها الامراض النفسية في اوربة ناشئة عن أسباب فوق الطبيعة كانت معارف الاطبـاء العرب الذين ورثوا الطب اليوناني صحيحة صريحة فيما يتعلق بهـذه الامراض ، ويظهر ان الملوك العرب هم الذين أوجدوا بادئ بدء دوراً خاصة بالمجانين في مصر ومراكش واسبانيا · ويرجع ان فكرة اسعاف المجانين قد انتقلت أخيراً الى العالم المسيحي بواسطة الملاجئ التي أوجدها المسلمون في اسبانيا » اﻫ ·

« للبحث صلة »

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فتاوى لغوية

وأهمها صحة جمع (مفعول) على (مفاعيل)

—(()) —

جاءني كتاب من الصديق الامير شكيب أرسلان وفيه ما نصه :

« يا أخي ! لفظة (أكتشف) لاتوجد في كتب اللغة أفرأيتها أنت في مكان ؟ ومثلها (احترم) بمعنى وقّر لم أجدها في المتون . ولكني وجدتها في كلام المولدين ومنهم صاحب البردة (أو يرجع الجار منهم غير محترم) فما قولك أنت ؟ ثم ان الجاحظ يجمع ميسور على (مياسير) فكيف يقولون : إن جمع مفعول على مفاعيل لا يجوز وان الشنقيطي اعترض على رفيق بك العظم في تسمية كتابه (أشهر مشاهير الاسلام) . وقالوا إنها ألفاظ معدودة واردة في كلام العرب منها مجانين . فما رأيك في هذه المسألة ؟ قرأت في بعض الكتابات القديمة لفظة (مشبوت) بمعنى ثابت فهل مرّت بك في محل ؟ يوجد ألفاظ كهذه أي اسم مفعول من هذا الوزن والفعل مزيد لا مجرد . الجرائد لاتبرح تقول (النُضوج) ولا يوجد نضوج من نضج . ويقولون (تكتّموا) ولا يوجد تكتّم . وان كان يجوز فعلى معنى تظاهر بالكتمان . لا على معنى المبالغة في الكتم . فالمبالغة في الكتم هو التكتيم لا التكتم قال ابو الطيب : (مالي أكتّم حباً قد برى جسدي وتدعي حب سيف الدولة الامم) اه »

سألني الامير رأيي في هذه الكلمات الست . وقد رأيت ان أفترص سؤاله عنها فأطبقها وأجري فيها تمريناً على (القرار) الذي كان نتيجةً لمقال (الكلمات غير القاموسية) المنشور في مجلد السنة الماضية (ص ٥٢١ و٥٧٧) فقد لخصنا في ذلك المقال آراء نحو عشرين عضواً من أعضاء المجمع العلمي بشأن هذه الكلمات التي لم تذكر في المعاجم المشهورة بعد ان قسمناها الى سبعة أصناف واستخرجنا من أجوبتهم زبدةً أو نتيجة يصح الركون اليها

والتعويل عليها · وهاأناذا الآن أنظر في كلمات الامير وأعرضها على (القرار) الذي رضيته (أكثرية) الاعضاء العشرين · فما أجاز (القرار) قبوله من هذه الكلمات أعلنا قبوله واستعماله · وما رفضه (القرار) أعلنا رفضه وإهماله · ولا أظن الامير الا راضياً عن حكم الاكثرية في اللغة · كما اشتهر عنه انه يرضى به في السياسة ·

﴿ اكتشف ﴾ جاء في كتب اللغة أن للاكتشاف معنى غير المعنى الذي يستعمله فيه الكتاب المعاصرون · فالاكتشاف في اللغة ان تبالغ المرأة في الكشف عن نفسها في خلوتها مع زوجها · فهو فعل لازم · أما اكتشف في استعمالنا اليوم فمتعد تقول اكتشف كولمبوس بلاد اميركا سنة كذا · واكتشف المخترع الفلاني البارود سنة كذا · واذا اعتبرنا لفظ (المرأة) في تفسير الاكتشاف قيداً غير لازم بل كما يقال اكتشفت المرأة لزوجها نقول اكتشف الرجلُ للخوض في النهر واكتشف المريض للطبيب · على معنى أنهما بالغا في حسر ثيابهما · وفي هذا الحسر ظهور ما كان خافياً — اذا اعتبرنا هذا كان قولنا اليوم (اكتشف) صحيحاً فصيحاً بشرط ان نستعمله لازماً قاصراً على فاعله فنقول (اكتشف البارودُ سنة كذا) برفع بارود على الفاعلية أي ان البارود ظهر سرّه للناس تمام الظهور بعد ان كان خافياً · وكذا (اكتشفت بلادُ اميركا) و (اكتشف سرُّ المسألة) وهكذا · ولكن لا أظن ان الناس اليوم يقدرون على هذا الاستعمال بعد ان فشا على لسانهم استعمال (اكتشف) متعدياً · وعلى هذا يكون فعل اكتشف المتعدي (مولّداً) هُدي اليه المعاصرون بتأثير من ذوقهم · فهو مثل (تفرّج) و(تنزه) و (احتار) و (خابر) وكلها من الصنف الرابع (من الاصناف السبعة للكلمات غير القاموسية) وهذا الصنف أفتى بجواز استعماله خمسة عشر عضواً من أعضاء المجمع وأنكر جوازه ثلاثة منهم · راجع مجلة المجمع (مجلد ١٢ ص ٥٣٠) فالفتوى إذن على استعمال فعل الاكتشاف ·

﴿ احترم ﴾ فعل (اكتشف) لم يرد في المعاجم ولا في كلام بليغ ولذلك جعلناه من الصنف الرابع وهو المولّد الذي أحدث الناس صيغته من مادة عربية ولا يعرفه الفصحاء أما (احترم) فليس من هذا الصنف بل من الصنف الثاني أعني الكلمات غير القاموسية التي جاءت في كلام فصحاء لايحتج بأقوالهم مثل كلمة (تخيم) التي جاءت في كلام الشيخ اليازجي

وكلمة (صدفة) في كلام الشيخ محمد عبده وهكذا فعل (احترم) فانه ورد في قصيدة الأبوصيري المشهورة :

(حاشاه ان يحرم الراجي مكارمه أو يرجع الجار منه غير محترم)

وكلمات هذا الصنف مما أفتى بجواز استعماله خمسة عشر عضواً من أعضاء المجمع ايدهم وخالفهم ثلاثة من الاعضاء . على ان الحق ان يقال في (احترم) إنها كلمة قاموسية فصيحة دوّنها صاحب (المصباح) في مصباحه وان أغفلها غيره قال : (والحرمة المهابة وهذه اسم من الاحترام مثل الفرقة من الافتراق) وقوله هذا يكفي في اعتبارها قاموسية فصيحة وان كانت ذكرت في كلامه عرضاً واستطراداً لاقصداً ونصاً . ولعل صاحب أقرب الموارد انما دوّنها في قاموسه اعتماداً على عبارة المصباح مذ قال : احترمه هابه ومنه قولهم (لاتحترم فتحترم) أي لاتهب فتقع في الحرمان .

※ مثبوت ※ قال الامير انه قرأها في بعض الكتابات القديمة بمعنى ثابت . وقوله هذا لايجعل كلمة (مثبوت) صالحة للبحث عنها مادمنا لم نعرف من هو الذي قالها ولا طريقة استعماله لها . اذ يمكن ان تكون وردت في كلام ذلك القديم مصحفة كما وردت مصحفة في (لسان العرب) في مادة (سرّ) (جزء ٦ ص ٢٦) فانه ذكر ان (مُسَرّ) بصيغة اسم المفعول وردت بمعنى (مسرور) في قول العرب (كل مجر بالخلاء مُسَرّ) أي مسرور مع ان فعل (أسرّ) المزيد لم يرد في كلام العرب وانما هم توهموا وجوده فاشتقوا منه (أسرّ فهو مُسَرّ) ثم ذكر صاحب لسان العرب مثالاً آخر لهذا التوهم وهو قولهم (منبوت) على توهم وجود (نبته) ثلاثياً متعدياً وهو لم يرد في اللغة وانما ورد أنبته فهو مُنْبَت فمنبوت إذن شاذ . ومنه قول الشاعر :

(وبلد يُغضي على النعوت يغضي كإغضاء الروى المنبوت)

كذا أورد صاحب لسان العرب هذا البيت ولم يفسر غموضه . وليس هذا فقط بل ان كلمتي (منبوت ونبته) وقعتا في نسخة (لسان العرب) محرفتين هكذا (مثبوت وثبته) أي بالثاء المثلثة بدل النون فلعل هاتين الكلمتين علقتا في ذهن الامير شكيب في بعض تصفحاته للسان العرب وغلطها مع الزمن مما جاء فيه مثبوت بمعنى ثابت . أو ان الامير رأى كلمة (مثبوت) في كتاب (فجر الاسلام) ص١٩٤ لمؤلفه الاستاذ احمد أمين إذ قال

(وللحسن البصري أقوال كثيرة مشبوتة في كتب الادب) و(مشبوتة) محرفة وصوابه (مبثوثة) وهي كلمة شدّ ما استعملها مؤلف فجر الاسلام في كتابه . وبناء على هذا لايجوز استعمال كلمة (مثبوت) بمعنى (ثابت) الا اذا عاد الامير فتذكر الكلام القديم الذي رآها فيه .

﴿النضوج﴾ بمعنى النضج من عثرات الأقلام بل (والافهام) ايضاً فالواجب تصحيحها وتنبيه الناس اليها . إذ لم ترد في المعاجم ولا في كلام متقدمي الفصحاء ولا متأخريهم وغلطتهم الفاشية هذه تشبه غلطة أخرى لم لم تفشُ بعدُ وأخشى ان تفشو . وهي قولهم (خوارالنفس) أو (خوارالعزيمة) مكان خور والخوَر الضعف اما الخوار فصوت البقر . واذا عرضنا كلمة (النضوج) على الاصناف السبعة للكلمات غير القاموسية كانت من الصنف السابع أعني الكلمات التي تدور على أفواه العامة وقد ولعوا بهـا ولا يستعملها [1] الفصحاء بل يتحاشون النطق بها . وكلمات هذا الصنف مما منع أعضاء المجمع استعماله وكادوا يجمعون على رذله والتشاؤم به (راجع ما قالوه في مقال الكلمات القاموسية) .

﴿تكتم﴾ لم ترد في المعاجم كما قال الامير وقد شاع استعمالها في طبقة الخواص الذين يأنفون من استعمال كلمة (النضوج) ولذا جعلنا (النضوج) من كلمات الصنف السابع العامية التي يجب إهمالها . أما فعل (التكتم) فأرى ان نجعله من الصنف الرابع المولد الذي أفتى بجواز استعماله خمسة عشر من الأعضاء اي اكثريتهم كما مر في (اكتشف) . على ان هذه الاكثرية ربما مالت الى اطراح (تكتم) ما دام يوجد في الفصيح فعل (كتَمَ) فهو ينوب منابه ولا يكون ثمة حاجة اليه .

---

(١) قرأنا أخيراً للاستاذ طه حسين مقالاً في المقارنة بين الشاعرين الأشهرين حافظ ابراهيم واحمد شوقي نشره في العدد الاخير من مجلة (الهلال) ورأيناه فيه يستعمل كلمة (النضوج) إذ قال : « تقليد حافظ يستحيل الى نضوج غريب وقوة بارعة الخ » فان نبهه الى سوء استعمال كلمة (النضوج) منبه ورجع عنها كان بها . وبقينا على حكمنا من ان (النضوج) كلمة عامية مبتذلة . وان أصرَّ الاستاذ على استعمالها تغير إذذاك وجه المسألة وتنتقل كلمة (النضوج) من الصنف السابع (العامي) الواجب الإطراح الى الصنف الرابع (المولّد) الذي تتكلم به الخواص ويكون له حكم هذا الصنف .

❊ مياسير ومشاهير ❊ هاتان الكلمتان تدخلان تحت بحث عام وهو (جمع مفعول على مفاعيل) هل يصح هذا الجمع ؟ وهل هو مطرد ومقيس او لا ؟ وقد أخّرنا الكلام على تينك الكلمتين لطول هذا البحث وخطورة أمره ولتكرر الجدل فيه بين طائفة من كبار كتابنا المعاصرين · ويمكن تلخيص هذا البحث بما يلي :

ما كان على وزن مفعول من الكلمات اذا كان صفة لا اسماً جمع جمع تصحيح (أي جمع مذكر سالم أومؤنث سالم) ففي القرآن (مسؤولون مبعوثون مجموعون محرومون · ملعونين ملومين مسبوقين) · وهل جمعها كذلك واجب بحيث لا يجوز جمعها على مفاعيل ؟ الظاهر من أقوال أكثر النحاة أنه لا يجوز : فابن هشام يقول : (يمتنع مضروب من التكسير) أي ان ما كان على وزن مضروب يمتنع ان يقال في جمعه مضاريب بل مضروبون · ومثله الزمخشري فقد قال : (يُستغنى في مفعول بالتصحيح عن التكسير) ومثلهما ابن الحاجب والرضي فقد قالا (باب مفعول التصحيح) أي كل ما كان على وزن مفعول فبابه ان يجمع جمع تصحيح لا تكسير ·

واذا نحن أوردنا على القائلين بهذا — كلمات وردت جموع تكسير لمفعول — أجابوا عنها على هذا الترتيب :

❊ مجذوب مجاذيب ❊ يجاب عنها بانها من كلام الفقهاء وأقوالهم أو اصطلاحاتهم ليست حجة في اللغة ولا تُنقض بها قاعدة مقررة ·

❊ مكتوب مكاتيب · محبوس محابيس · مسجون مساجين · مشنوق مشانيق · منحوس مناحيس · موضوع مواضيع · ومجموع مجاميع ❊ : يجاب عن هذه ايضاً بانها كلمات مولّدة لم ترد في المعاجم ولا في كلام الفصحاء المتقدمين ولا تصلح ان تكون حجة ·

❊ مناطير ❊ هذه الكلمة ليست مما نحن فيه إذ هي جمع مُنطِر بكسر الطاء لا منطور · وأصلها مناطر أُشبعت كسرتها فصارت «مناطير» ·

❊ مناكير ❊ وهذه ايضاً مثلها جمع منكَر بفتح الكاف لا منكور وأُشبعت الكسرة في الجمع ·

❊ مياسير ❊ هي جمع (موسر) لا ميسور · وقيل يصح ان تكون جمعاً لميسور ايضاً · ومهما يكن فلا دليل فيها على صحة جمع مفعول على مفاعيل ·

﴿ مشابيب ﴾ الواردة في قوله صلى الله عليه وسلم (الى الأقيال العباهلة والأرواع المشابيب) هذه ايضاً لا دليل فيها إذ ورد الحديث برواية ثانية أشار اليها صاحب النهاية وهي (الأرواع الاشباء) بتشديد الباء جمعاً لشبيب بمعنى المشبوب . وهو الابيض اللون الحسن المنظر . والدليل اذا طرقه الاحتمال سقط به الاستدلال .

﴿ مقادير ﴾ ليست جمعاً لمقدور بل لم ترد كلمة (مقدور) في اللغة ولم يذكرها صاحب التاج والمقتصر على قوله « والامور تجري بقدرالله ومقداره وتقديره وأقداره ومقاديره) اه وروى المبرد في كامله لبعض الشعراء يهجو :

(اذا عُيّروا قالوا مقادير قدرت وما العار الا ما تجرّ المقادر[1])

واذا لم تكن (مقادير) جمعاً لمقدور كانت جمعاً لمقدار قال ابن دريد :

(لا تسألني واسأل المقدار هل يعصم منه وَزَرٌ أو مُدَّرا)

فتكون النتيجة ان جميع هذه الكلمات الثلاث عشرة التي يُخيَّل انها جمع لمفعول لا شاهد فيها على جواز هذا الجمع ولا يصح ان تنقض بها القاعدة التي قررها النحاة من ان مفعول لا يجمع على مفاعيل .

﴿ مشهور مشاهير ﴾ يقولون في تزييفها إن علماء اللغة لم يذكروا في معاجمهم ان مشهور يجمع على مشاهير فلا يجوز استعمالها عملاً بقاعدة النحاة المذكورة . فاذا رددنا عليهم بان هذا الجمع اذا لم يدونه علماء اللغة في معاجمهم نصاً فقد استعملوه هم أنفسهم في كلامهم عرضاً : فقد استعملها (ابو زيد الانصاري) صاحب (النوادر في اللغة) ونطق بها (الزبيدي) شارح القاموس . و (الفيومي) صاحب المصباح . و (السيوطي) مؤلف المزهر . و (الميداني) جامع أمثال العرب . فيقول المتمسك بالقاعدة النحوية : ان نطق هؤلاء بتلك الكلمة واستعمالهم لها لا يفيد شيئاً مهما كبروا وعظم قدرهم لان استعمالهم لها خرق للقاعدة التي اتفق النحاة عليها وليسوا بمعصومين من الخطأ .

﴿ ملاعين مجانين ميامين مشائيم مناكيد ملاقيح مضامين مكاسير مجاهيل مماليك

(١) (المقادر) كذا رأيتها بالدال المهملة ولعل صوابها (المقاذر) بالذال المعجمة ويكون أراد الشاعر ان أقذار العيوب وأدران النقائص هي التي تجلب العار فما كان لهؤلاء المهجوين ان يعتذروا بالاقدار .

مراجيع ﴿ هذه الكلمات الاحدى عشرة ذكرتها المعاجم ووردت في الاحاديث الشريفة وكلام الفصحاء ، ولا ينبغي أن يقع في جواز استعمالها نزاع .

فيقول المعارضون حقاً لانزاع فيها ولا في جواز استعمالها ، ولكن لايجوز ان يقاس عليها غيرها كمشاهير ومكاتيب ومواضيع كل ذلك لتبقى قاعدة النحاة معاردة .

فيضيق حينئذ الصدر ، ويفدح الأمر ، ولانجدلنا ملجأ الاسيبويه ، أحسن الله اليه . فنسمعه يقول في (كتابه) المشهورالمخصص (ومضروب : تقول في جمعه مضروبون غيرانهم قالوا ملاعين ومكاسير ومشائيم) الى ان قال : (فأما مجرى الكلام الاكثر ان يجمع مضروب بالواو والنون) .

فيمكننا ان نستنتج من كلام سيبويه هذا أموراً :

(١) — ان الأفصح في جمع مفعول مفعولون لأنه هو وحده المستعمل في القرآن الكريم .

(٢) — انعبارة سيبويه السابقة وورود احد عشر كلمة جمعت على مفاعيل يسوغ لنا ان نجمع مفعول على مفاعيل أحياناً مع الاعتراف بان هذا الجمع المكسر أقل فصاحة واستعمالاً من ذلك الجمع المصحح ، واذا كان الكوفيون يرون ورود كلمة واحدة عن أهل اللسان كافياً لأن نضرب على غرارها كلمات — فالبصريون جديرون بان يروا هذه الكثرة في الكلمات المذكورة كافية لتقرير القاعدة والقياس عليها .

(٣) — ان كبار علماء اللغة (الانصاري والميداني والفيومي والسيوطي والزبيدي) أرادوا ان يكونوا لنا إماماً في هذا القياس والاستعمال : فجمعوا (مشهوراً) على (مشاهير) وان لم يكن هذا الجمع مما عرفه أهل اللسان ولادونته علماء المعاجم — فعلوا ذلك لتشجيعنا على الاقتداء بهم والسير على أثرهم : فجمعنا مكتوب على مكاتيب ، وموضوع على مواضيع ، ومحبوس على محابيس الى آخر الكلمات السبع المذكورة آنفاً .

(٤) — مها عارضونا في جعل جمع مفعول على مفاعيل مقيساً ولم يسمحوا لنا أن نجمع مكتوب على مكاتيب الخ بداعي ان مثل هذا ليس من شأننا ولايجوز لأمثالنا إبطال قاعدة قديمة ، كما لايجوزلنا تقرير قاعدة جديدة ، اذا قالوا هذا — ورأينا مجمعنا العلمي لم يقرر بعدُ شيئاً في هذا المعنى — لايمكنهم أن يمنعونا عن العمل بما اقره أعضاء المجمع في تجويز استعمال

كلمة (مشاهير) التي ينطبق عليها ماتقرر في الصنف الثاني من الكلمات غير القاموسية وهو الكلمات التي وردت في كلام الفصحاء المتقدمين · ولاريب ان كلمة (مشاهير) وردت في كلام ابي زيد[1] الانصاري الذي كان سيبويه اذا قال : (حدثني من أثق بعربيته) أراد به أبازيد هذا · ورجل يثق سيبويه بعربيته ينبغي ان نثق نحن بعروبة كلمة (مشاهير) اذا جاءت في كلامه · ويؤيد أبا زيد في هذا الباب الميداني[2] صاحب مجمع الأمثال · والفيومي[3] صاحب المصباح والسيوطي[4] صاحب المزهر والزبيدي[5] شارح القاموس · وكلهم من أئمة اللغة والتصنيف فيها وكفى بهم حجة ·

وخلاصة ما يقال في هذا البحث ان :

(اكتشف) كلمة مولدة يجوز استعمالها عملاً برأي خمسة عشر من علماء اللغة والادب المعاصرين ·

(احترم) كلمة قاموسية فصيحة يجب استعمالها كسائر الكلمات الفصيحة ·

(مثبوت) بمعنى ثابت لايجوز استعمالها لعدم العلم بقائلها ·

(نفوج) كلمة عامية يجب اطراحها من الساحة ·

(تكتم) كلمة مولدة يجوز استعمالها بقلة · وذلك لإمكان ان تقوم مقامها كلمة (كتّم) بالتشديد ·

(مياسير) كلمة فصيحة لان ارباب المعاجم نصوا على انها جمع موسر فيجوز استعمالها بلا نكير ·

(مشاهير) يجوز استعمالها اقتداء بمن استعملها من أئمة اللغة والأدب ·

(١) توفي سنة ٢١٥ هـ وعبارته هي : «اذا جاوزتَ المشاهير من الافعال التي يأتي ماضيها على فعَل الخ» نقل هذا عنه المجد الفيروزابادي في خطبة القاموس ·

(٢) توفي سنة ٥١٨ هـ قال في كتابه مجمع الامثال «وهذا المثل من مشاهير أمثال العرب» ·

(٣) توفي سنة ٧٧٠ هـ قال في مادة (ن ج س) «ومشاهير الكتب ساكتة عنه» ·

(٤) توفي سنة ٩١١ هـ قال في الكنز المدفون «ذكر مشاهير المعبّرين» ·

(٥) توفي سنة ٢٠٥ هـ قال في مادة (ق ب) «ولم يذكره ارباب الدواوين المشاهير» ·

(جمع مفعول على مفاعيل) يحتاج جوازه الى (قرار) من مجمع لغوي أو الى نص صريح لاحد علماء اللغة يدل على جوازه .

وقبل تقديم هذا المقال للطابع ظفرت بنص ارجو أن يكون هو المتقدّم . والشاهد المتوقع : ففي (اللسان) و (التاج) في مادة (ص ر ع) قال الازهري : الصريع القضيب يسقط من شجر البشام وصُرعَ الشجر قطع وطرح ثم قالا ما نصه وقول لبيد :

محفوفة وسط البراع يُظلها   منها مصارع غابة وقيامها

المصارع جمع مصروع من القُضُب . يقول : منها مصروع ومنها قائم والقياس مصاريع اه .

فلم يبق للمعارضين الا ان يقولوا : ان هذا القول (بقياس جمع مفعول على مفاعيل) هو فتوى علماء اللغة . أما علماء النحو فقد أفتوا بعدم القياس .

ونقول ان علماء النحو انما بنوا قواعدهم على تتبع علماء اللغة للنصوص واستقرائهم الجزئيات . فاللغويون هم حملة اللغة . ونقلة نصوصها . أما النحاة فمخرّجو مسائلها ومستنبطو فروعها . فالاولون هم الاصل الجدير بالاعتماد . ولايخفى أنه مع وجود النص لا عبرة بالاجتهاد .

هذا أيها الأخ الأمير رأيي أعرضه عليك . فإن أعجبك فحواه . والاّ فالسلة مأواه .

المغربي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ريحانة شوقي على قبر حافظ (١)

—(()—

قد كنت أوثر ان تقول رثائي … يا منصف الموتى من الأحياء

لكن سبقت ، وكل طول سلامة … قدر ، وكل منية بقضاء

الحق نادى فاستجبت ولم تزل … بالحق تحفل عند كل نداء

وأتيت صحراء الإمام (٢) تذوب من … طول الحنين لساكن الصحراء

فلقيت في الدار الإمام (٣) محمداً … في زمرة الأبرار والحنفاء

أثر النعيم على كريم جبينه … ومراشد التفسير والإفتاء

فشكوتما الشوق القديم وذقتما … طيب التداني بعد طول تناء

إن كانت الاولى منازل فرقة … فالسمحة الأخرى ديار لقاء

ووددت لو أني فداك من الردى … والكاذبون المرجفون فدائي

الناطقون عن الضغينة والهوى … والموغرو الموتى على الأحياء

من كل هدام ويبني مجده … بكرائم الأنقاض والأشلاء

ما حطموك وانما بك حطموا … من ذا يحطم رفرف الجوزاء

أنظر! فأنت كأمس شأنك باذخ … في الشرق ، واسمك أرفع الاسماء

بالأمس قد حليتني بقصيدة … غراء تحفظ كاليد البيضاء

ARCHIVE

(١) رأينا ان ننشر في مايلي بعض ماقيل في رثاء فقيدي الامة العربية ابراهيم حافظ بك واحمد شوقي بك مما رأينا حاجة الى نشره في مجلتنا .

(٢) المراد بالامام في البيت الامام الشافعي .

(٣) يشير الشاعر الى الاستاذ محمد عبده .

غيظَ الحسود لما وقمتُ بشكرها — وكما علمتَ مودّتي ووفائي
سِفي محفلٍ بشرتُ آمالي به — لمّا رفعتَ الى السماء لوائي

* * *

يامانح السودان شرخ شبابه — ووليّه سِفي السلم والهيجاء
لما نزلتَ على خمائله ثوى — نبعِ البيان وراء نبع الماء
قلدّته السيف الحسام وزدّته — قلماً كصدر الصعدة السمراء
قلمٌ جرى الحقبَ الطوالَ فماجرى — يوماً بفاحشةٍ ولا بهجاء
بكسو بمدحته الكرام جلالةً — ويُشيّع الموتى بحسن ثناء

* * *

اسكندريةُ يا عروس الماء — وخميلةَ الحكماء والشعراء
نشأتْ بشاطئك الفنون جميلةً — وترعرعتْ بسمائكِ الزهراء
جاءتك كالطير الكريم غرائباً — فجمعتها كالربوة الغنّاء
قد جمّلوكِ فصرتِ زنبقة الثرى — للوافدين ودرّةَ الدأماء
غرسوا رباكِ على خمائل بابلٍ — وبنوا قصوركِ سِفي سنا الحمراء
واستحدثوا طرقاً منوّرةَ الهدى — كسبيل موسى سِفي فجاج الماء
فخذي كأمس من الثقافة زينةً — وتجملي بشبابكِ النجباء
وتقلدي لغة الكتاب فانهـا — حجرُ البناء وعدة الإنشاء
بنترِ الحضارة مرتين ومهدت — للملك سِفي بغداد والفيحاء[1]
وسمتْ بقرطبةٍ ومصر فحأتا — بين الممالكِ ذروةَ العلياء
ماذا حشدتِ من الدموع «لحافظ» — وذخرتِ من حزنٍ له وبكاء
ووجدتِ من وقع البلاء بفقده ؟ — إن البلاءَ مصارعُ العظماء
اللهُ يشهدُ قد وفيتِ سخيةً — بالدمع غير بخيلة الخطباء
وأخذتِ قسطاً من مناحة ماجدٍ — جمِّ المآثر طيب الأنباء
هتف الرواةُ الحاضرون بشعره — وحدا به البادونَ في البيداء

(١) الفيحاء : دمشق الشام .

لبنانُ يبكيه وتبكي الضادُ من ... حلبٍ الى الفيحا الى صنعاء

عربُ الوفاء وفوا بذمة شاعرٍ ... باني الصفوف مؤلف الاجزاء

ياحافظَ الفصحى وحارسَ مجدها ... وإمامَ من نجلتْ من البلغاء

ما زلتَ تهتفُ بالقديم وفضله ... حتى حميتَ أمانةَ القدماء

جددتَ أسلوب (الوليد) ولفظه ... وأتيتَ للدنيا بسحر (الطائي)

وجريتَ في طلب الجديد الى المدى ... حتى اقترنتَ بصاحب البؤساء[1]

ما ذا وراء الموت من سلوى ومن ... دعةٍ ومن كرم ومن إغضاء ؟

إشرحْ حقائقَ ما رأيتَ ولم تزل ... أهلاً لشرح حقائق الاشياء

رتبُ الشجاعةِ في الرجال جلائلٌ ... وأجلهنَّ شجاعةُ الآراء

كم ضقتَ ذرعاً بالحياة وكيدها ... وهتفتَ بالشكوى من الضرّاء

فهلم فارقْ يأس نفسك ساعةً ... واطلُعْ على الوادي شعاع رجاء

وأشرْ الى الدنيا بوجهٍ ضاحكٍ ... خُلقتْ أسرّتُهُ من السرّاء

يا طالما ملأَ النديَّ بشاشةً ... وهدى اليك حوائج الفقراء

اليومَ هادنتَ الحوادثَ فاطّرحْ ... عبْءَ السنين والقِ عبْءَ الداء

خلّفتَ في الدنيا بياناً خالداً ... وتركتَ أجيالاً من الابناء

وغداً سيذكرُك الزمان ولم تزل ... للدهر إنصافٌ وحسنُ جزاء

احمد شوقي

---

(١) يشير الى الشاعر الفرنسي فيكتور هوجو .

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

النيل الخالد

عجبًا ! أتوحشني وأنت إزائي … وضياء وجهك مالئٌ سودائي ؟ !
لكن جرى قدرٌ وان أبت المنى … بنوى أحبتنا لغير لقاء
جرحوا صميمَ القلب حين تحمّلوا … اللهَ في جُرحٍ عزيز شفاء
الطيب المحمود من عمري مضى … والمفتدى بالروح من خلصائي
لا بل هما مني جناحا طائر … رُميا ولم يك نافعي إخطائي
الصاحبان الأكرمان تَوَلَّيا … فعلامَ بعد الصاحبين بقائي ؟
لم يتركا بردائها غير الأسى … لأُحبِّهما ما دام في الأحياء
وحيالي الخلطاء الا انني … متغرب بالعهد في خلطائي
أيرادُ لي من فضل ما مجدا به … إرثٌ ؟ اذنْ جهلَ الزمانُ وفائي !
إن نحيَ بالذكرى فلا تبديل في … صفةٍ ، ولا تغيير في الأسماء
يا صاحبيَّ غدوتُ منذ نأيتما … أجدُ الحياة ثقيلةَ الاعباء
لا ليلُ عافيةٍ هجعتُ به ، ولا … يومٌ نشطتُ به من الإعياء
انا واحد في الجازعين عليكما … وكأنما ذاك البلاء بلائي
فاذا بدا لكما قصوري فاعذرا … او شفَّما لي مسلفات ولائي

* * *

مهلاً أميرَ الشعر غير مدافعٍ … ومعزَّ دولتهِ بغير مراء
كم أمة كانت على قدر الهوى … ترجوك ما شاءت لطول بقاء
متمكنًا من نفسها إيمانها … أن لم تكن ممن حيوا لفناء

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فاذا المنايا لم تزل حربَ المنى   واذا الرزيئة فوق كل عزاء
في مصر بل في الشرق منها لوعةٌ   سدّت على السلوان كل فضاء !
أترى مويجات الأثير كأنها   حسرى بما تزجي من الانباء ؟ !
بعث الشرار بها نقالاً لو بدا   ما حمّلت لبدت نطاف دماء !
جزع الكنانة كاد لا يعدو أسى   أمّ القرى ومناحةَ الفيحاء
وبحضرموت على تنائي دارها   شكوى كشكوى تونس الخضراء
بالامس كان هواك يجمع شملها   في فرقة النزعات والاهواء
واليومَ فتّ رداك في أعضادها   ما أجلبَ البأساء للبأساء

* * *

أفدحْ بما يلقاه آلك إن يكن   حُزنُ الأباعدِ جلّ عن تأساء
حُرموا أبًا برًّا نموا وترعرعوا   من جاهه في أسمح الافياء
وكفقدهم فقدَ الغرانيقُ العُلى   علمَ الهدى للفتية النجباء
وكرُزئهم رُزئ الرجال مُربيًّا   عفّ اللسان مهذب الايماء
يتناولون من الصحائف وحيه   فتكون كل صحيفةٍ كلواء !
ماعشت فيهم ظلت بلبلَ أيكهم   في الأمن ، والرئبال في اللأواء
لك جوك الرحبُ الذي تخلو به   متفرداً والناس في أجواء
عذلوك في ذاك التعزلِ ضلة   إن التعزلَ شيمة النزهاء
ما كان شغلك، لو دروا الا بهم   لكن كرهت مشاغل السفهاء
ولعلّ اعطفهم عليهم من دنا   بالنفع منهم وهو عنهم ناء
أنزلتَ نفسك عند نفسك منزلاً   يأبى عليها الخسف كل إباء
فرعيتَ نعمتك التي أثلتها   ورعيت فيها جانب الفقراء
تقني حياءك عالماً عن خبرةٍ   أن الخصاصة آفة الأدباء
وترى الزكاة لذي الثراء مبرةً   منه به ووسيلة لزكاء
كم من يدٍ أسديتها وكسوتها   متأنقاً لطف اليد البيضاء

* * *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عصرٌ تقضى كنت ملءَ عيونه   في أربعين بما افدت ملاء
يجلو نبوغُك كل يوم آية   عذراء من آياته الغراء
كالشمس ما آبت أنت بمجددٍ   متنوع من زينةٍ وضياء
هبةٌ بها ضنَّ الزمانُ فلم تُتح   الا لافذاذ من النبغاء
يأتون في الفترات يُوعد بينها   لتهيؤ الاسباب في الأثناء
كالانبياء ومن تأثر إثرهم   من علية العلماء والحكماء
رفعتك بالذكرى الى أعلى الذرى   في الخلد بين اولئك العظماء
من مسعدي في وصفها أو مصعدي   درجات تلك العزة القعساء
ومُطوع لي من بياني ماعصى   فأقول فيك كما يجب رثائي
لي فيك من غرر المديح شواردٌ   أدت حقوق علاك كل أداء
ووفت قوافيها بما أملى على   قلبي خلوص تجلتي وإخائي
ماذا دهانى اليوم حتى لاأرى   إلا مكان تفجعي وبكائي

* * *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(شوقيْ) لاتبعد وان تك نية   ستطول وحشتها على الرقباء
تالله شمسك لن تغيب ، وانها   لتنير في الإصباح والإمساء
هي في الخواطر والسرائر تجتلي   ابداً ، وتغمرهن باللألاء
والذخر أغلى الذخر ما خلفته   من فاخر الآثار للأبناء
هو حاجة الاوطان ما دالت بها   دُولٌ من السراء والضراء
سيعاد ثم يعاد ماطال المدى   ويظلُّ خيرَ مآثر الآباء
يكفي بيانك أن بلغت موقفاً   فيه أعزُّ مبالغ القدماء
بوأت مصر به مكاناً نافست   فيه مكانَ دمشق والزوراء
ورددت موقفها الاخير مقدماً   في المجد بين مواقف النظراء
لك في قريضك خطةٌ آثرتها   عزّت على الفصحاء والبلغاء
من أي بحرٍ دره متصيدٌ   وسناه من تنزيل أيِّ سماء
ظهرت شمائل مصر فيه بما بها   من رقةٍ ونعومةٍ وتقاء

ترخيمها في لحنه متسامعٌ ... ونعيمها في وشيه متراء
شعرٌ سرى مسرى النسيم بلطفه ... وصفا بروعته صفاء الماء
ترد العيونُ عيونه مشتفة ... ويُصيبُ فيه السمعُ ريَّ ظماء
ويكاد يلمس فيه مشهود الرؤى ... ويُحَسّ همسُ الظنّ في الحوباء
في الجو يؤنس من يحلق طائر ... والدوّ يؤنس راكبَ الوجناء
عجبًا لما صرفت فيه فنونه ... من فطنةٍ خلّابة وذكاء
فلكل لفظ رونقٌ متجددٌ ... ولكلّ قافية جديدُ رُواء
يُجلى الجمال به كأبدع ما انجلت ... صُوَرٌ حسانٌ في حسانِ مراء
ولربما راع الحقيقة رسمها ... فيه فما اعتصمت من الخيلاء!

* * *

حياك ربك في الذين سموا الى ... أملٍ فأبلوا فيه خيرَ بلاء
من مُلْهَمٍ أدى أمانة وحيه ... بعزيمةٍ غلّابةٍ ومضاء
متجشم بالصبر دون أدائها ... ما سيم من عنتٍ وفرط عناء
للعبقرية قوةٌ طوبيةٌ ... في نجوةٍ من نفسه عصماء
كم أخرجت لأولي البصائر حكمةً ... مما ألمّ به من الأرزاء
حتى اذا اشتعل المشيب برأسه ... ما زاد جذوتها سوى إذكاء
فالداء ينحل جسمه ونشاطُها ... يُخفي بروعته نشاطَ الداء
جسمٌ يقوّضه السقام، وهمُّها ... متعلق بالخلق والإنشاء
عجبًا لعاميه اللذين قضاهما ... في الكدّ قبل الضجعة النكراء
عاما نزاعٍ لم تهادن فيهما ... نُذُر الردى وشواغل البرحاء
حفلا بما لم يتسع عمرٌ له ... من باهر الإبداع والإبداء
فتحٌ يلي فتحًا، وصرحٌ باذخٌ ... في إثره صرحٌ وطيدُ بناء
هذا الى فطنٍ يقصر دونها ... مجهودُ طائفة من الفطناء
من تحفةٍ منظومةٍ لفكاهة ... أو طرفةٍ منظومة لغناء
أو سيرةٍ سيقت مساقَ رواية ... لمواقف التمثيل والإلقاء

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

تجري ، وقالعها فقبلو للنهى منها مغازي كن طي خفاء
فاذا الحياة عهيدها وعتيدها مزج كمزج الماء والصهباء
تطفو حقائقها على أوهامها وتسوغ خالصة من الأقذاء

* * *

يا من صحبت العمر أشهد مانحا في الشعر من متباين الأنحاء
إني ليحضرني بصادق حاله ماضيك فيه كأنه تلقائي
من بدئه وحجاك يفتح فتحه للحقبة الأدبية الزهراء
حتى الختام ومن مفاخر مجده ما لم يتح لسواك في الشعراء
فأرى مثالاً رائعاً في صورة للنيل تملأ منه عين الرائي
النيل يجري في عقيق دافق من حيث ينبع في الربى الشماء
يسقي سهول الريف بعد حزونه ويديل عمراناً من الإقواء
ما يعترضه من الحواجز يعده ويعد الى الإحياء والإرواء
حتى اذا رد الفيافي جنة فيما علا ودنا من الأرجاء
أوفى على السد الأخير ودونه قرب المصير الى محيط عفاء
فطغى وشارف من خلاف زاخراً كالبحر ذي الإزباد والإرغاء
ثم ارتمى بفيوضه من حالق في المهبط الصادي من الجرعاء
فتحدرت وكأن منهمراتها تخصل من الأنوار والأنداء
مسموعة الإيقاع في أقصى مدى جذلى بما تهدي من الآلاء
إن أخطأت قطراً مواقع غيثها أحظته باللمحات والأصداء!

* * *

لله در قريحة كانت لها هذي النهاية من سنى وسناء
رفعتك من عليا فانية الى ما ليس بالفاني من العلياء!

خليل مطران

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اثر الادب العربي

— في شعر شوقي —

« كلمة الاستاذ احمد الاسكندري »

لم تكن مصر وهي ولاية عربية بيئة خصبة لاخراج نوابغ الشعراء اذ لم تكن حينئذ دار ملك عظيم ولا موطناً جامعاً للفصحاء المتنافسين في الشعر .

ولما صارت دار ملك عتيد للفاطميين كانت زعامة الشعر والأدب ضاربة بجرانها ببغداد وعواصم الجزيرة الفراتية والشامات فنبتت بمصر ناجة أشبهت الفحول ولم تكنهم وانطبعت صناعتها بطابع مصري صبغته الرقة اللفظية والمحسنات البديعية والنكتة المصرية لا جزالة اللفظ ولا فخامة المعاني . وجرت هذه الصناعة ذيولها على من بعدهم من شعراء مصر والشام زمان دولة بني أيوب ودولتي المماليك . فاذا كان هذا شأن الشعر في مصر المستقلة صاحبة الولاية على الشرق العربي فما ظننا به وهي ولاية عثمانية تتعاورها الأوبئة وتتلقفها الفتن والمزاهن ، لا جرم ان يكون الشعر بحالته الاولى وطرافته الثانية رقد رقدة لم يوقظه منها الا عصر اسماعيل العظيم الذي جنى فيه الادباء ثمرة غراس جده الكبير . فكر به البارودي كرة استرجع بها رونقه في القرن الخامس الهجري ، واقتدى به بعد نفيه طائفة طاولت فحول الأوائل وأنجبت شاعرنا بالامس وفقيدنا اليوم بامور لم تجتمع لهم جميعاً من توقد قريحة وشرف نشئة ونبالة تثقيف وإحاطة بعلوم واتقان للغات وسعة اطلاع وخدمة ملوك ومداخلة ساسة وبلهنية عيش وتنوع تمتع وكثرة اسفار وطول فراغ وفسحة أجل .

وكأني بقائل يقول : كثر ماتاحت لسواه هذه الامور فلم تأت منذ قرون بنابغة مشهور قلنا أجل هي صمصامة عمرو فأين يمينه .

« أثر الشعر القديم في شعره »

ما كان شوقي بدعاً من الشعراء ولا خرج بشعره ثائراً على القدماء وانما تأدب بادبهم وسار على دربهم ومازال شعره كشعرهم تتألف القصيدة منه من أبيات مستقلة في اللفظ والمعنى على وزن واحد وتتركب من أخيلة جزئية لا من خيال كلي مفصل الاجزاء شأن الشعر القصصي الاوربي ، اتبع شوقي هذه الطريقة العربية حتى في المقطعات الكبيرة من مسرحياته .

والذي حدا به الى ان يكون عظيماً في الشعر العربي اطلاعه على شعر البارودي البليغ وسماعه إعجاب الناس به فأقبل على درس كتب الأدب ودواوين الشعراء وابتدأ كما قال عن نفسه — بديوان البها زهير فكان موفقاً جد موفق لانطباع شعر هذا الشاعر بالطابع المصري ولسهولته الممتنعة على غيره في الغزل ، وجره شعر زهير الى درس شعر أهل حلبته من أمثال ابن مطروح وابن النبيه والحاجري والتلعفري فحذا حذوهم وبزهم جميعاً قبل أن يتم العقد الثالث من عمره .

وبالطبع لم يقف بشعره عند هذا الحد فهبَّ ينازع فحول الدولة العباسية صولجان سلطانهم من أمثال ابي نواس والبحتري وابي تمام والمتنبي والمعري والشريف الرضي وأمثالهم فأعجبه من ابي نواس خمرياته وغزلياته السائغة وحاكاها فقارب .

وراقه من البحتري حسن ديباجته وأوصافه وتشبيهاته حتى ليظن ان اكثر ماثراه لشوقي في وصف القصور والهياكل ومواكب الملوك مستمد منه أوصحاً كِبه طريقته . ولولا انه سلك في الحكمة وإرسال المثل مسلك ابي تمام والمتنبي لكان خريج البحتري وحده .

وأورثه سلوكه مسلك ابي تمام وابي الطيب أن يتخلق بخلقهما : من الاعتداد بالنفس وقلة الاكتراث بتعارف المتأدبين والنقاد عندما ينظم . فكان اذا جاش خاطره وحمي مرجله بمعنى صبه في اي قالب يتسع له في نظره وان ضاق عنه في نظر غيره إما لضعف قرينة وإما لخفاء كناية واما لتشابه في مراجع الضمائر فيغمض ويعسر فهمه على غير الخبراء بشعر شوقي فيختصم فيه أنصاره ونقاده في الصحف والمجلات ولا يدفع صاحبنا عن نفسه باكثر من ان يتمثل بقول أستاذه ابي الطيب في وصف أبياته :

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

ومع انه يحطب في حبل المتنبي ويتعصب له لم يستطع ان يحكم التشبه به في عامة مذهبه من وضع المعنى الكثير في اللفظ القليل فجاء أقرب شبهاً بابي تمام منه بابي الطيب ·

واكبر ظني ان شوقياً لم يتثقف كثيراً بشعر المعري واكتفى ان يثاقفه في نقد العادات المعيبة والآراء الافينة وان كان المعري قد طرق في شعره أبواباً لم يطرقها عربي في فلسفة الحياة والاجتماع ومعاملة الحيوان ونقد نظم الحكم والسياسة والاشتراع والتدين فصدف شوقي عن طريقة المعري في ذلك كما رغب عن تكلفه في قوافي لزومياته اذ ليس من سجايا صاحبنا التعمق في الفلسفة ولا التكلف الى هذا الحد ونعم انه تمرس مرة بلزوم ما لا يلزم في موشحة أندلسية فدرج في بعض أقسمتها بروي مزدوج الحروف وما اطاقه في بقية الأدوار والأقسمة ونعما فعل ·

والحق ان المباراة التي عقدها بين نفسه والفحول من الشعراء الآتي الذكر قد انجلت عن ان السابق في الزمن ما زال سابقاً في الشعر وان ارتاض جوادنا المصري بمجاراتهم أيما ارتياض ·

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أما الشريف الرضي وأنداده في الشعر من أمثال مهيار الديلمي البغدادي وابن هانئ وابن زيدون وابن خفاجة وابن حمديس من الاندلسيين والمغاربة فهم من ساميهم بشاعرنا فقد درس دواوينهم وعارض أشهر قصائدهم فكان يصرعهم مرة ويساجلهم أخرى ويتخلف عنهم تارة فهم ان فضلوه بسبقهم الى الشعر وتعبيدهم طريقه راجحهم بفضل ثقافته الجديدة وشهوده تلك الحضارة الباهرة فأتى بما لم يأتوا به واكل بجديده قديمهم فقاسمهم ملكهم ونرجو ان لا يكون خاتمهم ·

« سلوك شوقي في مسلك المتقدمين في أغراضه »

قال شوقي الشعر في كل الاغراض عدا المجون والتزهيد في الدنيا والهجاء ·

فأما المجون والتزهيد في الدنيا — فان روح العصر واستكانة الشرق يصدان عنهما ·

واما الهجاء فلم تطب نفس شوقي السمحة ان تورد شعره في هذا المورد البشع ·

وقال الشعر في بقية أغراض القدماء وجمع بين براعة المتقدمين وبزاعة المعاصرين

وبداعة المصريين فكان غزله يسيل رقة ويتنزه عن الافحاش تنزهاً وكان مدحه لا يمل وان لم يعدُ فيه مألوف العرب، لبث فينا عمراً من قبل الحرب العظمى يمدح ممدوحاً واحداً في مواسم مكررة فلم تزل له قصيدة وأماديحه في الاسلام ورسول الاسلام وخلفاء الاسلام وأبطال الاسلام غرة في جبين الايام ورفلة منه الى مقيل عثرات الكرام وغافر الآثام .

اما الوصف فهو جل بضاعته ومظهر براعته ولا تخلو منه قصيدة من شعره ، وأروعه ما أخرجه مخرج العظة والاعتبار كسينيته في آثار الاندلس التي عارض بها البحتري ووقفته على قبر نابليون وندبه معبد اسوان ووصفه ابا الهول .

وأضاف شوقي الى الثروة التي خلفها القدماء في أغراض الشعر وأبوابه أبواباً لم يحلموا بها : أوجدتها الحضارة الحديثة ونظم الاجتماع والسياسة مثل : وصف سفينة البخار والغواصات والكهرباء والطيارات والطيارين والقطار البخاري والهلال الأحمر والصليب الأحمر والمراقص وابي الهول وانتحار الطلبة والأحزاب السياسية ودار الندوة المصرية المسماة بالاعجمية (البرلمان) وديانة المصريين وعباداتهم وكنوزهم وعظمة النيل واعتقاد القدماء فيه والبحر الابيض المتوسط والبريد وطابعه وجسر البسفور وصبيان المكتب وحرية المرأة . ولا نعرف شاعراً مسلماً تحقق بديانة قدماء المصريين وتمجد بالعالم مثله .

« معانيه »

تنسب عظمة شوقي الى إجادة المعنى اكثر من نسبتها الى اجادة اللفظ وانما تكثر معاني الشاعر وتعظم وتجود اذا اجتمع له امران :

اولهما — سعة اطلاعه والمامه بكثير من العلوم والفنون وخصائص الديانات وتاريخ الشعوب وخرافاتهم وابطالهم .

وثانيهما — توقد قريحته وصدق نزعاته التي تدفعه اليها غرائزه الفطرية .

فالامر الاول يكون في نفس الشاعر صورية اجتماعية مكتسبة من البيئة والمجتمع اللذين يعيش فيهما . وبهذه الصورة ينفذ الى قلوب من يعاصرهم وينال إعجابهم .

والامر الثاني يطبع في نفسه صورة فردية لشخصه تطابق ماطر عليه من النزعات والميول والاكياس من الشعراء من يخفون من أجزاء هذه الصورة ما يتسخطه المجتمع

ويظهرون منها ماتطرب اليه نفوسهم ونفوس من يضاهئونهم ·

وشوقي جد كيس بزيع : أظهر سيف معاني شعره كل صورته الكسبية الاجتماعية فأعجب الأديب والعالم والفيلسوف والمؤرخ والسياسي والمشترع والمفتن والمسلم واليهودي والنصراني ولم يظهر في معاني شعره الا بعض أجزاء من صورته الفردية (الفطرية) فأعجب نفسه ومن يشاركه في الهوى : هتف بالخمر فاستقصى ، وتغزل بالجميل فاستهوى الانفس ، ووصف المراقص فاستمال القلوب ، فاستدل المجددون في الشعر بهذا على انه يحب الحيـاة ومادروا انها صورة المرء الفطرية الحيوانية يظهرها التبذل ويغمرها التزمت والتدين والا فمن منا لا يحب الحياة انما تختلف في وجوه نشدها :

أرى كلنـا يبغي الحياة لنفسه حريصاً عليها مستهاماً بهـا صبا
فحب الجبان النفس أورده التقا وحب الشجاع النفس اورده الحربا

ومن معرفتنا بان كل امرىء يعيش طبيعة بصورة لنفسه وصورة للمجتمع نعرف خطأ من يقول ان شوقياً غريب الأطوار فبنا هو يشيد بالتبزع سيف وصف الخمر والتمتع باللذائذ والتولع بالملاهي اذا به يحث على التفاني سيف نصرة الاسلام والتنافس سيف نشر الفضيلة والايثار على النفس ، نسي هذا القائل تأثير الغرائز الفطرية بكل شخص كما نسي ان المجتمع الذي يعيش فيه شوقي هو الغريب الاطوار السريع التقلب فهو يعايشه في اموره العامة بصورته الاجتماعية المكتسبة منه ويراجع لذاته بصورته الفردية ·

هذا وليس عجباً ان يفوق شوقي شعراء زمانه ومن قبلهم من بعد القرن الرابع با كثاره من المعاني المبتكرة فلا نكاد نقرأ له قصيدة الا متضمنة معنى أو أكثر من معانيه المبتكرة أو المولدة توليداً بديعاً بحيث يتألف من مجموعهـا ثروة تضاف الى ثروة الأدب فتزيده عزازة وتمكيناً ·

« مسلك شعره في اللفظ والاسلوب »

يضيق بنـا المقام الليلة عن وصف شعره سيف لفظه وأسلوبه مفصلاً تفصيلاً وكل مايمكن ان نقوله انه كان في صباه رقيقاً سهلاً قليل اللفظ الغريب ثم صار في كهولته يرق في الغزليات والخمريات وأوصاف الملاهي ويفخم ويجزل ويغرب ويغمض سيف الجديات

وعندما يعارض شاعراً عظيماً او يكتب الى عالم كبير أو مملك خطير وهذا الغريب أحيا منه شوقي أكثر من الألف كلمة زادت الأدب فراهة ومجادة · وليس معنى ماقلت في هذه الليلة ان شوقياً رزق الكمال في شعره كما رزق السعادة ، فالشاعر الكامل لم يسمح به الزمان بعد ولعل له من العيوب الفنية والأخطاء النحوية اللغوية ما يستنفد عشرات الصحائف ومبلغ القول فيه انه بشر يخطئ ويصيب وانه مكرمة من مكارم الشرق وحسنة من حسنات الأدب العربي · وكفى شوقياً شرفاً وعظمة ان تكون لجيعتنا فيه هي لجيعة للعرب والمسلمين والشرق كافة وان كل قلب فيهم يستشعر اليأس من ان يستدير الزمان فيجود لنا بنادرة الفلك وبكر عطارد · فهل تخرج لنا الارض التي أنبتته والهيأة التي أنجبته مثل شوقي ليس ذلك بعزيز على مفيض العقول وواهب الحياة سبحانه وتعالى ·

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

رحلة اوليا جلبي (١)

« في البلاد العربية »

- ٨ -

وفي منتصف هذه البليدة (سلمية) ساحة وسيعة تلتقي فيها طرق الاحياء الضيقة المعوجة وتحيط بها حوانيت الباعة ومرائب السيارات وقد قامت في وسطها دار الحكومة الحديثة وفندق حوله حديقة وبجانبها جامع للسنيين حديث البناء . وفي أحياء سلمية وقراها اماكن لعبادة الاسماعيلية لا يعرفها ولا يدخلها الأغيار يدعونها « جمعة » بفتح الجيم يرتادونها مرتين في اليوم قبيل الفجر وعقيب الغروب فيلتف الرجال ووراءهم النساء حول مائدة عليها صورة شمسية لمعبودهم آغا خان وبعد ان يختموا أدعية باللغة الاوردية يؤدي كل منهم الزكاة وهو خمس ما جناه في ذلك اليوم مما تفه يرسل مجموعه في آخر العام الى الهند . وثمة في جنوبي سلمية مدرسة ابتدائية رسمية وأخرى في غربيها زراعية عملية انشئتا بأموال الزكاة التي ذكرناها . والمدرسة الزراعية انشئت في عهد العثمانيين في سنة ١٣٢٩ ولها مبان حسنة وارض واسعة وقد سبق لكاتب هذه السطور جهود جمة في ادارتها وفتحها واعمارها بعد ان أحرقت عقيب الحرب العامة واغلقت، فثقفتُ التلامذة على الأساليب الزراعية الحديثة ووضعتُ المناهج وألفتُ بعض الكتب في الفنون التي كانت تدرس بالتركية ولم يسبق لها وجود في العربية وأنشأتُ الكروم والبساتين والمنابت الزاهية حتى الآن وخرّجتُ خلال السنوات السبع التي مكثتُ فيها عدداً غير يسير من الاخصائيين استلم بعضهم زمام العمل فيها وغيرها من المعاهد والدوائر الزراعية في مختلف الأقطار العربية فكان منهم بعض النفع

(١) مازلنا في صدد هذه الرحلة غير ان تعليقنا هذا عليها قد طال وسنعود اليها فلينتظر القارئ .

في خدمة هذه الحرفة . وبعد ان غادرت هذه المدرسة انحط شأنها ومازال بانحطاط حتى اضطرت الحكومة في العام الماضي الى الغائها وابقائها كركز للاختبار الزراعي فحسب .

وفي سلمية من الآثار القديمة الرِقي البزنطية والعربية التي قدمنا ذكرها وقد فتح حتى الآن على مافيل نحو خمسين منها وبقي مثل ذلك أو أكثر . وكان أعظمها وأطولها القناة التي ذكرنا في بحث حماة امتدادها من سلمية الى حماة وإسقائها البساتين والاراضي الشمالية التي استبعلت بعد دثورها . ولم يبق من آثار هذه القناة الا قليل من الآبار الجسيمة التي ترى في طريق حماة بين سلمية وتل الدرة ويظن البعض انها تخص القناة المذكورة ويزعم آخرون انها تخص قناةً تذهب الى مدينة أفامية تدعى قناة العاشق ، على ان الظن والزعم المذكورين يحتاجان الى تحقيق . وكانت هذه القناة من أكبر دواعي عمران حماة في عهد ملوكها الايوبيين ، خربها مرة شيركوه ملك حمص الذي كان عسوفاً برعيته مسيئاً لجيرانه . قال ابوالفداء في حوادث سنة ٦٣٥ : كان الملك الكامل شديد الحنق على شيركوه صاحب حمص فأمر العسكر فبرزوا لقصد حمص وأرسل الى صاحب حماة وأمره بالمسير اليها فبرز الملك المظفر من حماة ونزل على الرستن ولكن مات الملك الكامل بغتةً ففرح صاحب حمص وأرسل ارتجع سلمية من نواب الملك المظفر وقطع القناة الواصلة من سلمية الى حماة فيبست بساتينها ثم عزم على قطع النهر العاصي عن حماة فسدّ مخرجه من بحيرة قدس التي بظاهر حمص فبطلت نواعير حماة والطواحين وذهب ماء العاصي في أودية بجوانب البحيرة ثم لما لم يجد الماء مسلكاً عاد فهدم ما عمله صاحب حمص وجرى كما كان اولاً اه . وقال في حوادث سنة ٧٢٦ يذكر تنظيفه هذه القناة : وفيها في منتصف ربيع الآخر الموافق لحادي والعشرين من آذار خرجت بعسكر حماة ووصلت الى القناة الواصلة من سلمية الى حماة وقسمتها على الامراء والعسكر لينظفوها فانها كانت قد آلت الى التلف بسبب مااجتمع فيها من الطين فحرروها في نحو اسبوع ثم عدت الى حماة اه .

وفي سلمية من المباني الأثرية أسس سور الحصن القديم وقسم من أبراجه يختفي وراء الحوانيت وكان هذا الحصن من بناء العرب قبل عهد المماليك شيد بانقاض المباني البيزنطية القديمة وقد هدم وبالأسف خلال الحرب العامة واستعملت أنقاضه في عمارة دار الحكومة

الحديثة . أدر كنافيه ثمانية أبراج مربعة الشكل أربعة في الزوايا وأربعة في منتصف الاسوار وكان في وسطه فناء واسع وفي جنوبه قبو كبير اتخذه السنيون مسجداً على سطحه غرف عديدة لموظفي القضاء . وثمة حمام عربي قديم وجدوه في بدء عمران سلية الاخير على حالته الحاضرة فنظفوه وما برحوا يستعملونه وهو يماثل حمامات المدن الكبيرة بحسن تقسيمه واتقان بنائه ويشهد بما كان لسلية وأهلها في عهد العرب من الحضارة والرفه وعلى يسار بابه حجر عليه كتابة كوفية لاتحوي تاريخاً مما يدل على ان الحجر مستعار من مكان آخر . وجامع خراب ينسب الى الامام اسماعيل يظهر من هيأة قسمه الشرقي انه كان كنيسة في صحنها أعمدة ممدودة ومنتصبة من الحجر الحرّي (نسبة الى الحرّة) والحجر المجنب (الغرانيت) الاحمر والاسود وفي قسمه الغربي قبة عالية من الآجر نصفها مهدوم تحتها أضرحة اسلامية لأناس مجهولين زعموا ان صاحب الضريح الاكبر الذي يخطأ سكان سلية بنسبته الى الامام اسماعيل هو أحد بني هاشم الذين استوطنوا سلية في القرن الثالث واسمه رضي الدين عبد الله بن احمد الوفي بن محمد التقي بن محمد المكتوم بن اسماعيل وانه بعد ان توفي قبيل حادثة القرامطة ذهب من سلم من أسرته في سنة ٢٩٦ الى المغرب برئاسة احد أبناء أعمامه عبيد الله بن محمد الحبيب الذي قدمنا ذكر لحاقه بابي عبد الله الشيعي وتلقبه بالمهدي وتأسيسه الدولة الفاطمية . وعلى أسكفة باب القبة زيرت كتابة كوفية تاريخها سنة ٤٨١ قرأنا منها بعد الجهد الكلمات الآتية :

بسم الله الرحمن الرحيم عمل هـذا المشهد ..... المباركة ... العابد الأجل ابو الحسن علي بن حرمل (؟) ....

... صانعه الأمير الأجل ..... الملك سيف الدولة خلف بن ملاعب أدام الله علوه في سنة احدى وثمانين واربعمائة

دلت كلمة المشهد الواردة في هذه الكتابة على ان أصحاب الأضرحة الراقدين تحت القبة شهداء ولكنها لم تذكر اسماءهم باللاسف لنعرف من هم ، ودلت على ان سلية كانت تجاة تدبر حمصاً في عهد صاحبها خلف بن ملاعب الكلابي الذي كان يخطب للفاطميين . وقيل ان في الزاوية الغربية القبلية من خارج حرم هذا الجامع الخرب حجر أسود زبر عليه

باليونانية ما تعريبه : « هذا باب الله من تكلم الصدق وسار على الحق دخل منه » ٠

وقلما تخلو باحة أو دار في سلمية من أسس الجدران أو ناووس أو جرن أوسارية أو تاج أو قاعدة عمود بعضها مستعمل في تضاعيف الابنية وبعضها ملقى ومنهـا ما عليه كتابات ونقوش يونانية تنتظر من يعنى بها ، وفي احدى الدور ينزل من فوهة بئر الى مسجد صغير تحت الارض معقود ومبلط فيه محراب وحوض ماء ٠ وفي ضواحي سلمية الى الغرب من عين الزرقاء طاحونة قديمة تعرف بطاحونة المعبد وجد فيها الاثري هارتمان في أوائل هذا القرن أحجاراً عليها كتابات تشبه الطلاسم وعمودين من الحزي مؤلفين من عدة قطع ولها تيجان كورنثية وعلى عمودين آخرين كتابات يونانية و كوفية غير واضحة ٠

والى الشمال الغربي من سلمية على بعد ثلاثة كيلو مترات اكمة عالية جرداء من أذيال جبل العلا في ذروتها جامع خرب لايسع الزائر الا استغراب الحكمة في بنائه في هذا العلو المقفر وهو ينسب الى الخضر حجره من الحزي وفيه كسور أعمدة حلزونية ٠ وفي غربي جامع الخضـر تل عال أبيض منتصب وسط واد عريض أحاطت به أذيال جبل العلا وربضت فوقه (قلعة شميميس) ذكرها ابو الفداء في تاريخه في حوادث سنة ٦٢٧ قال : في هذه السنة شرع صاحب حمص شير كوه في عمارة قلعـة شميميس وكان لما سلم اليه الملك الكامل سلمية قد استأذنه في عمارة تل شميميس قلعة فأذن له بذلك ولما أراد شير كوه عمارته أراد الملك المظفر صـاحب حماة منعه ثم لم يمكنه ذلك لكونه بامر الملك الكامل اه ٠

وهذا التل ذو شكل مخروطي وتأليف جيولوجي غريب نادر المثال فأسفله من الصخور الجيرية وقمته من الحزي تظهر الثانية فوق الاولى كطاقية صغيرة سوداء فوق هامة كبيرة كللها المشيب مما يدل على ان التل كان بركاناً قذف بحممه وكان قليلاً لجمد عند الفوهة ٠ وقد نقر مشيدو القلعـة في بلعوم هذه الفوهة بئراً عظيمة الدائرة لا يعرف غورها عششت فيها أسراب الحمام البري ٠ ومهدوا سطح الطاقية وبنوا على دائرتها أسوار القلعة وأبراجها وحفروا حول التل خندقاً عظيماً وعميقاً يحيط بالقلعة ٠ واذ لم يبق الجسر والبـاب اللذين كانا في قبليها أثر أصبح القاصد لا يبلغها الا زحفاً لشدة الانحدار ٠ وقد هدم كل

الابراج وأعلى الاسوار فصار الزائر لايرى في داخل القلعة الاالبئر التي ذكرناها واطلالاً وركاماً لجدران متساقطة ودعائم متهدمة ماخلا قسماً من السور ونوافذه فانه لايزال ماثلاً . وموقع قلعة شميميس ذو مكانة حربية لا يستهان بها تدل على جودة نظر بنائها فهي وان اختفت وراء الآكام المحيطة بها تشرف على ابعاد شاسعة يصل مداها الى ضاحية حمص في الجنوب وطريق حماة ووادي العاصي في الغرب والسهول الممتدة الى جبل البلعاس في الشرق والطرق الآخذة الى الاندرين وحلب في الشمال . ولم يذكر ابو الفداء ولا غيره من مؤرخي العرب من هو شميميس التي نسبت هذه القلعة وتلها اليه وربما كان احد ملوك حمص من آل شميسغرام او غيره ، لان بناءها وان كان عربياً بحتاً من طراز الهندسة العسكرية السائدة في عهد الملوك الايوبيين لكن اسم شميميس وحصره بتل هذه القلعة دون غيره من التلال والآكام المجاورة المحرومة من الاسماء يذهبان بالظن الى انه كان هناك حصن قديم من قبل الاسلام خربته عوادي الزمان لجاء الملك المجاهد شيركوه في سنة ٦٢٧ ونقضه وعمر القلعة الحالية لتكون مقابل قلعة حمص التي عمرها هو ايضاً بعد دثورها . وبقيت شميميس في يده وبيد ابنه المنصور ابراهيم الى ان سلمها حفيده الأشرف موسى في سنة ٦٤٥ الى الصالح ايوب ملك مصر والشام . وفي سنة ٦٥٨ جاء التتار بقيادة هولاكو فنالوا منها كما نالوا من بقية قلاع الشام ثم رممها بعد ذهابهم الملك الظاهر بيبرس في جملة ما رمم وظلت تعد من ممتلكات دولة المماليك المصرية بدليل ذكرها في المعاهدة التي عقدها الملك المنصور قلاوون مع الصليبيين في سنة ٦٨٢ ثم اهمل امرها لما عمت الفوضى بعده الى ان قضت عليها الزلازل وفتن الأعراب . على ان القضاء الاخير لم يتم الا بعد مجيء سكان سلمية الحاليين فهم تهافتوا على تهديمها ونقل أحجارها حتى ان بابها الكبير الذي كان ماثلاً في قبليها في سنة ١٣١٣ حينما زارها الأثري (فان برشم) قد نقض هو والبرجان اللذان كانا يحرسانه وهكذا تندثر الآثار القديمة في بلاد الشام بيد جهلاء ابنائه وتضيع مفاخر الاسلاف دون ان تجد لها شفيقاً او نصيراً .

وفي شمالي سلمية على بعد خمسة كيلومترات ربوة فيها جامع خرب ينسب الى الشيخ فرج (؟) له قبة من الآجر اكثرها متهدم وله جدران متداعية وفي شرقيه ضريح محاط

بجدران غير مسقوفة صاحبه الشيخ المذكور تزوره الاعراب واهل القرى لاعتقادها ببركته . وفي جنوبي هذا الضريح مقبرة فيها قبور قديمة وحديثة صاحب احدها « محمد ابن عيسى بن مهنا » المتوفى في سنة ٧٢٤ كما زبر على شاهدة قبره . وابو هذا الرجل عيسى ابن مهنا سليل بني طي القبيلة المشهورة التي قال ابن خلدون عن افرادها : ملأوا السهل والجبل حجازاً وشاماً وعراقاً وكان منهم اصحاب الدولة في العراق والشام ومصر . وقد كان عيسى ثم من بعده ابنه مهنا اميري البادية كلها في اواسط القرن السابع واوائل الثامن وكان لهما منزلة رفيعة لدى السلاطين المماليك في مصر ونوابهم في الشام . وقد رددت التواريخ اخبارهما واخبار الغارات والفتن التي اتى بها اولاد مهنا واولاد اخيه فضل واعقابهما في القرن الثامن والقرون التي تلته مما ادى لدثور سلمية وضواحي حماة والمعرة . وقد تغير اسم آل مهنا بعد حين كما هي عادة اهل البادية وجاء من اعقابهم فرع صار يدعى بابي ريشة هم الآن امراء عشيرة الموالي المعروفة في زمننا ، لا يزالون على سنن جدودهم يثبون كلما لقوا من فوضى الاحكام فرصة ويقتتلون مع جيرانهم الحديديين كلما وجدت الفتنة من يوقظها فيا بينهم فينال الطرفان من الغارم والغانم .

وفي شرقي سلمية على بعد ٤٧ كيلو متراً منها جبل يدعى البلعاس يذهب اليه القاصد ماراً بقريتي بري الغربي وبري الشرقي ويلمح على يمينه الصفاوي وتل الغاوي ومرج مطر والخفية وتل التوت وهذه القرى تتبع مركز القضاء في سلمية . ثم يمر بعقر الغربي والشرقي تاركاً على يساره ارض قرية عقارب الواسعة ثم بابي حبيلات وابي رمال الى ان يوافي عقيربات . وقد ذكر ياقوت في معجمه عقيربات بدون تاء وقال انها ناحية بحمص ، وهي ضيعة في أقصى العمران فيها الآن مخفر للدرك ومدير ناحية تتبعه الضياع والمزارع النائية مثلها كفريتان وعرشونة وعكش وابوحنايا وقليب الثور ودلابا ومسعدة ومسعود ما عدا التي مر ذكرها في الطريق . وأهل عقيربات جالية من قرية السخنة على طريق تدمر ودير الزور ، وقد عرفت بحدوث المعارك الاولى بين قبيلتي الموالي والحديديين حينما نشبت الفتنة بينهما في سنة ١٣٣٩ وانتقلت الى أماكن أخرى وعمت البلوى منهما ودامت اذذاك سبع سنوات وبعد ان أطفئت عادت الى النشوب منذ عهد قريب وما برحت .

والبلعاس يبتدأ من قرب عقيربات ويقف حاجزاً بين فيافي البادية وأرياف الحاضرة . وهو مؤلف من آكام وهضاب متسلسلة يتخللها أودية يختلف بعرضها وعمقها ، وطوله من الشمال من مكان يدعى حسو الرمل الى آخر في الجنوب يدعى القايا شرقي كورة حمص نحو خمسين كيلو متراً وعرضه من جوار عقيربات السويد الى صرة ابي الظهور اربعون كيلومتراً . ويتصل البلعاس في شرقيه بسلاسل من الجبال المائلة له تمتد من الغرب الى الشرق الى قرب قرية السخنة وتدعى باسماء مختلفة كأبي الظهور وفيه موقع يدعى الشفا وشاعر وشطب والمراة وابو رجمين وابو حيـة والابيض وهذا يشرف على طريق حمص وتدمر . ويختلف علو هذه الجبـال بين ١٠٠٠ — ١٤٠٠ متر بينما السهول الناشزة قرب سفوحها لا تتجاوز خمسمائة المتر . وفي هذه الجبال أشجار قديمة عظيمة من البطم الذي ينفع بحطابه وعصير ثمره المشابه لزيت الزيتون وباستمداده للتطعيم بالفستق وفيهـا لاسيما قرب عقيربات قليل من السويد الذي نسبت اليه وهذا ليس منه سوى الحطب . وتدل ظواهر هذه الاشجار على انها كانت في الماضي حراجاً كثيفة وكان البلعاس ومازال أغناها بذلك . الا ان يد القطع والاستئصال نالت منها وبالالاف وبعدت المسافة بين الشجرة والثانيـة مئات من الأمتار ، وما برح اهل سلمية وعقيربات وضواحيها يقطعون أحطاب هذه الاشجار وينقلونها على عجلاتهم وجمالهم ويبيعونها في حمص وحماة وسلمية ناهيك بما تحرقه الاعراب الذين ينزلون فيه في فصل الشتاء او يمرون به اثناء التشريق والتغريب مما يقدر مجموعه في كل عام باربعين الف قنطار ونيف . وقد خلا معظم الهضاب الغربية في البلعاس من أشجاره بسبب هذا القطع المستمر ولا رادع ولا وازع ، وسوف لا يمضي على ما رأيت عشرون سنة حتى يتجرد هذا الجبل الجليل من أشجاره بالكلية كما تجرد جبل الشومرية وجبل قلوف وغيرهما من جبال الشام فاختل نظام الأمطار وتوالت أعوام المحل من جراء هذا التجريد والتخريب .

ذكر ياقوت البلعاس فقال أنه كورة من كور حمص وكان عرَّف الكورة في مقدمته بانها كل صقع يشتمل على عدة قرى ولا بد لتلك القرى من قصبة او مدينة او نهر يجمع اسمها . فهل كان هذا الجبل عامراً في عهد ياقوت وماقبله حتى سماه كورة ؟ لا جرم

ان المتجول في هضاب البلعاس وشعابه وفي الجبال المجاورة له التي عددناها يجد خرباً ورسوماً كثيرة تعد بالمئات لاتزال أطلالها ماثلة بعضها يشبه المخافر لوقوعه في ذروات مشرفة على المنافذ والمسالك وبعضها يشبه الدساكر والضياع أشهرها أم قبيبة ورمم التنباك والتركمانية وحميات ودبيس وجب العمارة وحويسيس والقسطل وبستان صبيح والمسكرة . وغالبها يحتوي على صهاريج مندثرة شيدت وطليت بما يضبط الماء وسلطت عليها المجاري الآتية بمياه الشتاء مما يثبت ان هذه الجبال المقفرة في يومنا كان بعضها ان لم يكن جلها آهلة في العصور الغابرة وذلك على الرغم من انها محرومة بالكلية من الينابيع المتفجرة في حين ان صخورها رسوبية جيرية بيضاء وهذا مادعا سكانها القدماء لحفر تلك الصهاريج وتشييدها . بيد ان ياقوت لم يزدنا ايضاحاً كما ان غيره من جغرافيي العرب ونخص بالاشارة ابي الفداء لم يذكروا عن كورة البلعاس شيئاً لذا غمض علينا مبلغ العمران الذي وصلت اليه وعدد السكان وحسبهم ونسبهم ومعاشهم أ كان من الاحتطاب وعصر ثمر البطم أم من غيرها ايضاً وما سبب خراب هذه الكورة وزمنه أ كان قبل الفتح الاسلامي أم بعده في بدء عهد العباسيين كما نقله الصابوني في تاريخ حماة دون ان يذكر المصدر أم بعد عهد ياقوت في القرن الثامن حينما خربت سلمية وضواحيها بيد الأعراب أبناء وأحفاد مهنا بن عيسى .

هذا وقد اعتادت عربان ديار سلمية وحماة والمعرة ان تنزل في فصل الشتاء في البلعاس والجبال المجاورة له وذلك في الحرب الدائرة التي ذكرناها وبعض القبائل تمر بها في طريقها الى البادية (الحماد) او الحاضرة (المعمورة) خلال التشريق والتغريب وهم يرغبون في الارعاء في هذه الجبال لصلاحها للغنم والمعز التي تتسلق الاشجار وتتغذى باوراقها قبل هطول الامطار واخضرار الارض بنبات الربيع . ولهذا دعيت مثل هذه القبائل في كتب الاقدمين باهل الشجر لمكوثها او مرورها بالجبال الشجراء على حين ان اهل الوبر اي أصحاب الإبل العريقين بالبداوة كقبائل عنزة تبتعد عن البلعاس لضرر أشجاره بالابل التي تحتك بها وتصاب بالجرب وتبتعد خاصة عن جبل شاعر الذي زعموا ان في سفحه (او شليله كما يقولون) عشب صغير ينمو بين غيره من النبات في الربيع اذا أكله البعير يصيبه وهن أشبه بالهيضة وقد يبقى فيه كامناً الى أواخر فصل الصيف ولا يؤمن من ظهوره

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

في البعير حتى يشرب ماء السماء (اي ان تمطر) .

وفصل الربيع في هذا الجبل جميل يستهوي غواة المتنزلات القفراء والاودية الشجراء والهضاب الغضراء ، لاسيما بعد ان يورق البطم وتنمو الانجم والأعشاب وهي هنا تقترب بوفرتها وتنوعها لما في الجبال الغربية وبعد ان تمتلئ صهاريجه وحواياه بمياه السيول والامطار وتزدهي سفوحه وأوديته بمضارب العربان ويرن فيها ثغاء الغنم والحملان وتكثر الزبد والألبان . وبعض أوديته واسعة الرقعة خصبة التربة حمراء اللون صالحة للاستغلال لا ينقصها الا الأمن واليد العاملة . ويذكر ان في جبل شاعر أرضاً تشبه كورة العلا بالنشوز واحمرار التربة وسعتها وخصبها وان في الجبل الأبيض على مقربة من تدمر مقطع للرخام الأبيض وفي غربي المنهل المعروف بالجحار صخر أحمر يعرف بمقطع المرو وان في جبل المراقايضاً مقطع آخر يماثله . واذا لم تكف مياه الصهاريج والحوايا في هذه الجبال يرد الأعراب الآبار الموجودة في السهول الممتدة في شماليها أو شرقيها أو جنوبيها كآبار امرية والقصير وابو الفياض وابو النيتل والتوبنات والكديم والهباة وقواعد وجب الرمان وجحار وعين البيضاء وابو رغيوة ومخلف وحفار الجواد ومياه الآبار الثلاثة الاخيرة مرة .

« للبحث صلة » وصفي زكريا

جامع التواريخ

— او —

« نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة »

— ٨ —

ابوعلي عبدالله بن الحجاج وابوبشر النصراني (١) الكاتب يهجو أباالفضل الشيرازي الوزير (٢) كان من ابيات :

ما كل من طوّل عثنونه   ينال فضلاً يا ابا الفضل
طوّلت عثنونك تبغي الغنى   اي طِلٍ في ذنب البغل
ولستُ أحصي كم رأيت امرءاً   ألحى ولكن كوسج العقل

***

حدثني ابو اسحاق أبراهيم بن احمد بن محمد الطبري الشاهد قال حدثنا الحسين بن فلان الكاتب النصراني الملقب يبظر أُم الدنيا قال قال (٣) لي ابن الفرات أمرُ السلطان المخرقة فاذا استحكمت وتمت صارت سياسة .

***

(١) كذا بالأصل ويظهر ان الجملة ناقصة . (٢) قوله (الوزير كان) بمثابة قولنا اليوم (الوزير السابق) . (٣) الوزراء لهلال ص ٦٣ .

وحدثنا قال حدثنا قاضي القضاة ابي محمد بن معروف قال كنت مع المطيع لله في طيّاره وقد ركب وانا واقف بين يديه مع حاجبه وكلما دعت له طائفة سألني عنها فأُخبره بها حتى دعت له طائفة من الطالبيين فقال مَن هوءلاء فقلت الطالبيون فاعرض عنهم واطرق ساعة وعبس الى ان جازهم ثم قال يا أباعبدالله قلت لبيك يا امير المؤمنين قال العلوية اهلي واقرب الناس اليّ ووالله اني احبهم ولكن اعلم انهم يبغضوني ومثلي لا يخاتل ولا يجوز ان أعاملهم الا بما رأيتَ ·

وسمعته يقول سمعت جعفراً الخلدي الصوفي يقول لو تركني الصوفية لجئتكم باسناد الدنيا (١) مضيت الى عباس الدوري وانا حدث فكتبت عنه مجلساً واحداً وخرجت من عنده فلقيني بعض من كنت اصحبه من الصوفية فقال ايش هذا معك فأريته اياه فقال ويحك تدع علم الخرق وتأخذ علم الورق قال ثم خرق الاوراق ودخل كلامه في قلبي فلم أعد الى عباس · وسمعته يقول سمعت جعفراً يقول سمعت جنيداً الصوفي يقول سمعت سريّاً السقطي الصوفي يقول اعرف قوماً يرون المواساة (٢) بخلاً انما هو الايثار · وسمعته يقول سمعت جعفراً الخلدي يقول وقف سائل على الجنيد ونحن عنده في حلقته فرد عليه فسأله فقال يا هذا الصناعة واحدة ولكنا اظرف · انصرف اغناك الله · فانصرف · وسمعته يقول سمعت جعفراً الخلدي يقول حججت ستاً وخمسين حجة منها عشرون حجة على المذهب يعني

(١) لعله يريد باسناد ابن ابي الدنيا قال العسقلاني في تهذيبه (١٢٩:٥) انه روى عن عباس الدوري · (٢) قال الجرجاني في تعريفاته : المواساة ان ينزل غيره منزلة نفسه في النفع له والدفع عنه · والايثار ان يقدم غيره على نفسه فيهما ·

على التوكل بلازاد ولاراحلة · وسمعته يقول سمعت جعفراً الخلدي يقول من أراد ان يستكتم سوءاله فليستكتم كما فعل رويم فانه كتم حب الدنيا اربعين سنة فقيل له كيف قال كان يتصوف اربعين سنة فولي بعد ذلك اسماعيل بن اسحق القاضي قضاء بغداد وكانت بينهما مودة وكيدة فجذبه اليه وجعله وكيلاً على بابه فترك الصوفية والتصوف والتوكل ولبس الخز والقصب والدبيقي والمروي وركب الحمير والبغال واكل الطيبات وبنى الدور واذا هو كان يكتم حب الدنيا لما لم يجدها فلما وجدها أظهر ما كان يكتم من حبها · وسمعته يقول سمعت ابا القاسم الزيات الصوفي يقول سمعت الجنيد يقول : قال لنا السري السقطي : البريءُ جريءٌ والخائن خائف والجاني مستوحش · ومن الشعر الجيد في هذا المعنى :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أمُستوحشٌ أنت لما أسأتَ فاحسن اذا شئت واستأنسِ

* * *

حدثنا ابو عمرو القاسم بن جعفر بن عبد الواحد الهاشمي القاضي قال حدثنا ابو القاسم البزاز قال حدثني بعض أصحاب سهل بن عبد الله التستري الزاهد قال قال لي سهل : الجاهل ميت والعاصي سكران والمصرّ هالك ·

في أمثال العامة كن صحيحاً وكن فصيحاً · ومن أمثالهم في هذا المعنى اذا كان بولك صحيحاً فاضرب به وجه الطبيب اي اذا كنت سليماً فلا تبال ما صنعت (١) ·

(١) يظهر ان معنى المثل : اذا كنت في حال الصحة فلا حاجة الى طبيب ·

سمعت ابا اسحاق ابراهيم بن احمد الطبري يقول سمعت جعفراً الخلدي يقول سمعت جنيداً يقول سمعت سرياً السقطي يقول الناس في الاعمال يتقاربون وانما قارب من قارب بحسن الأدب بين يدي الله تعالى .

* * *

وحدثني قال كان ابو الحسين بن نصرويه ربما شاورني في الشيء يجري فأستعظم ذلك منه وأقول : مثلك وأنت الشيخ المجرب المحنك المدرب المهذب يشاور مثلي وانا ولدك هذا مما يوحشني منك ويقع لي انك تجربه مجرى المزل فيقول لي قد رفعك الله عن هذا وانما كان هذا يجري كما قلت لو كنت لأنافضك في الرأي وتنافضني وأحاجك (١) وتحاجني الى ان يثور (٢) الشيء بيننا فاعمل بما يتقرر فاما وأنت تراني أفعل هذا فلا مظنة فيه ولكن أمثل عندك (٣) نفسي انك شابّ ولعمري ان علم الشباب محقور .

* * *

وحدثني قال سمعت ابا الحسين بن نصرويه يقول : وافى ابو محمد المهلبي لما كتب لمعز الدولة — البصرة فاعتقل القاضي اباالقاسم جعفر بن عبد الواحد الهاشمي ليغضّ منه ويشفي ابا تمام الزينبي الهاشمي لاجل ما كان بينهما من المصاهرة وعداوته لابن عبدالواحد ولم يكن بين ابن عبدالواحد والمهلبي شيء يختص به من عداوة فدخل ابوتمام الى المهلبي مسلماً فلما خرج قال المهلبي لغلمانه

(١) يريد : ولااحاجك . (٢) لعل الصواب : يتقرر . (٣) يريد انه عند محاجته للشاب يجعل نفسه شاباً . والعبارة غير واضحة .

انظروا الى ابن بلغ فعادوا وقالوا قد خرج من الدهليز وانصرف فقال: أقبضُ على مثل ابن عبد الواحد لا لشيء الا لاجله وبدخل اليَّ وهو معتقَل عندي فلا يكون فيه من المروءة ما يدخل اليه ويعرض نفسه عليه ويتكفل بامره ويسألني فيه ويكون سبب اطلاقه ويسترقه بذلك ؟ قم يابا الحسين فخذ بيد ابن عبد الواحد الى منزله فقد أطلقته قال فمضيت الى ابن عبد الواحد وهو في الحبس فحدثته بما جرى وجئت به الى المهلبي فشكره وانصرف الى منزله ·

***

وحدثني قال سمعت ابا الحسين بن نصرويه يقول : حضرت مجلس المهلبي وقد دخل اليه جعفر بن عبد الواحد فلقيه في وجه مقطب وقصر به ثم جلس وأخرج من كمه رقعة فتأملت التثاقل والتكره في وجهه فقرأها ووقع فيها ثم أخرج أخرى وأخرى الى ان عرض عليه عدة رقاع فوقع و كلما وقع في واحدة انبسط وجهه في وجه ابن عبدالواحد الى ان تكاملت الرقاع ثم قام ابن عبد الواحد ودخل ابوتمام الزينبي فرفعه المهلبي أتم رفعة واهتش له فأقبل عليه بوجهه وأخرج رقعة فعرضها عليه فوقع له وأخرج عدة رقاع و كان كلما أخرج رقعة ووقع فيها ظهر في وجهه الكراهية والتثقل الى ان فرغ من الرقاع فأخذها ابوتمام وقام فأقبل المهلبي وقال يابا الحسين شتان بين الرجلين دخل اليَّ ابن عبد الواحد فعملت لان أُقصيَه بماعاملته من قلة الرفع والتقرّب فعرض عليَّ اول رقعة فاعتقدت قبل قراءتها ان أردها فلما قرأتها وجدتها لحاجة غيره فاستحييت ان يكون أكرم مني وقد بذل جاهه لمن

سأله سؤالي مع ما يعلمه بما له عندي فما منعه ذلك أن يستميح بجاهه للسائل وأبخل انا بما أقدر عليه فيكون أكرم مني فأنفت من ذلك ووقعت له ثم توالت رقاعه فوجدت جميعها حوائج الناس ما له ولا لأحد ممن يخصه شيء منها فوقعت في جميعها ونفسي سمحة بذلك وقد نبل في عيني وندمت من ردها وقد دخل هذا فعاملته من الاكرام بما رأيت لما بيني وبينه فعرض رقاعه فوجدت اولها في شيء يخصه فوقعت له وكلما عرض رقعة تطلبت ان يكون فيها شيء لغيره فأقضيه له وأجمل به محمدة عليه فما وجدت الجميع الا له فيما يخصه فكرهت ذلك له وانحط من عيني ولم أستحسن رده لما بيننا فوقعت له فكيف يمكنني ان أرفع ممن هذا سبيله وأضع ممن تلك سبيله .

***

سمعت ابا اسحاق يقول سمعت جعفراً الخلدي يقول سمعت الجنيد يقول سمعت السري السقطي يقول : فاكهة القر (1) الغيبة . وسمعته يقول سمعت جعفراً الخلدي يقول سمعت الجنيد يقول سمعت السري السقطي يقول : اشتهي منذ ثلاثين سنة شهوة ماقدرت عليها فقيل له ماهي قال اشتهي آكل أكلة لا يكون فيها لله عزّ وجل عليّ تبعة ولا لمخلوق . فما وجدت ذلك .

***

(1) لعله : القرب . والقرب والغيبة من اصطلاحات اهل التصوف . او لعل صوابه فاكهة القراء الغيبة والقراء جمع قاري يعنون بهم الفقها . اوالقر بمعنى البرد أي انالغيبة تنوب في فصل الشتا عن الفاكهة كما يقال النار (فاكهة الشتا) .

وسمعت ابا اسحاق يقول سمعت بعض شهود الحضرة القدماء يقول: كنت بحضرة ابي عمر (١) القاضي وجماعة من شهوده وخلفائه الذين يأنس بهم فأحضر ثوباً يمانياً قيل له في ثمنه خمسون ديناراً فاستحسنه كل من حضر المجلس فقال ياغلام هات القلانسي فجاء فقال اقطع جميع هذا الثوب قلانس واحمل الى كل واحد من أصحابنا قلنسوة ثم التفت الينا وقال انكم استحسنتموها باجمعكم ولو استحسنه واحد لوهبته له فلما اشتركتم في استحسانه لم أجد طريقاً الا ان يحصل لكل واحد منكم واحدة منها ٠

* * *

حدثني ابو الحسين محمد بن محمد بن اسماعيل بن شاند الواسطي قال كان ابو قرة الحسين بن محمد القنائي الكاتب قد كتب لابي علي كتاب (٢) بن العباس الديلمي المعروف بالكوسج ضامن واسط برسالة الوزير ابي محمد المهلبي ومشورته عليه بذلك ثم استوحش منه فاستتر منه يومين او ثلاثة وراسله فأمنه وظهر فكتب ابو قرة الى المهلبي يخبره بعد ظهوره وسبب استتاره لئلا يهجن أخباره عند (٣) ابي علي قال فوقع بخطه على ظهر الكتاب توقيعاً قرأته فكان « أحسن الله اليك كما أحسن توفيقك فلتسألن (٤) نفسك فاني عونك ومن ورائك ان شاء الله » ٠

* * *

(١) بالاصل : عمرو ٠ (٢) لعله كلاب ٠ (٣) لعله : عن ٠ يعني لوجاءته عن ابي علي ٠ (٤) لعل الصواب : فلتسأُونَّ أو معنى لتسألن لتحاسبن ٠

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وحدثني ايضاً قال كان المهلبي في بعض انحداراته الى البصرة وهو وزير أضاق فأخذ غلة عظيمة بعشرة آلاف دينار لابي وجدها بالبصرة واخذ غلات التجار المحدورة من دستميسين وواسط وغلات خلق كثير وباعها وصرفها في دخل وخرج المملكة فأشير على ابي بالاصعاد الى سبكتكين الحاجب ومسألته يخبر معز الدولة بذلك فيأمر بارتجاعها منه فخالف ابي وانحدر الى المهلبي فتلقاه بالابلة . قال : فلما صعدت اليه هش بي وسر سروراً عظيماً وقال ماجاء بك فقلت بلغني ان الوزير أيده الله اخذ غلة وجدها لي بالبصرة فسررت بذلك لتقديري انه شرفني بهذه الحال وبسط يده فيمالي كما بسطها في مال نفسه وأوليائه اذا احتاج الى أموالهم وتشرفت بذلك الى ان بلغني انه أخذ مع مالي أموال التجار وأصحاب الضياع وأصاغر الناس من اهل دستميسين وواسط فأقلقني ذلك وعلمت ان هذا لو كان على سبيل الانس لخصني به سيدنا الوزير ولم يشرك فيه معي هذه الطبقة التي لا يجوز لمثله ان يأنس بها في قرض ولا استعانة وانما هم للمصادرات فقط فخفت ان يكون جيل رأيه قد استحال في تخليطي بهذه الطائفة فجئت مستصلحاً لرأيه . وواقفاً تحت أمره . قال : فأعجبه قولي جداً فقال لي يا علي (١) أنت والله مقبل (وكررها مراراً) قبل ان تدخل اليّ بلحظة حضرني من قال انك قد أصعدت الى الحاجب سبكتكين لتشاكني (٢) اليه فاعتقدت لك كل قبيح وعملت على نصرة فعلي ان جرى فيه كلام بكل مايجوز ان ينصر به مثله فانا

(١) قد سبق ان اسم الرجل محمد . (٢) لعل صوابه لتشاكيني أو لتشكوني .

أفكر في ذلك اذ استوذن لك عليّ فدخلتَ فسحرتني ووالله لاخرجتَ من هذا الموضع أوأصلك(١) الى مالك أو اكثره وأقيم لك بالباقي وجوهاً ناضة وجذب الدواة فكتب الوجوه بما يعجل ويسبب وفرغ من ذلك وامر بانشاء الكتب وسبب لي بالباقي على شباشي الخوارزمي مولى معز الدولة ضامن البصرة فأخذته في مدة قريبة واصعدت الى واسط ·

* * *

حدثني ابو بكر بن جعفر السواق احد تجار الكرخ ببغداد المشهورين باليسار والستر وحفظ القرآن ووجه من وجوههم قال : كان عليّ وعد بنفدة لابن عبدان الصيرفي « وهذا رجل باق الى الآن من وجوه الصيارف بدرب عون من المياسير » فأخرت إنجازه لضرورة لحقتني ولم تكن عادتي جارية معه بمثل ذلك فجاءني يتقضاني وقال في عرض الخطاب أقول لك يا ابا بكر كما قال الله « وشديد عادة منتزعة » فقلت انا لله ما قال الله عزّ وجل هذا قال فاستحيا مني وقام فما عادلي اياماً فلما حضرت الدراهم أنفذتها اليه ·

و كان عندنا بالبصرة رجل من التجار مستور يعرف بأبي علي بن سعدان احد الباعة في دار البطيخ موسر يركب وينبسط في المجالس وفي الكلام فأخبرني ابو طلحة الازدي صاحب بني المثنى شيخ مستور قال رأيته مرة ونحن جلوس في دهليز جعفر بن عبد الواحد القاضي ننتظر الاذن عليه وقد حضرت العصر فقام كل واحد منا فصلى وقام ابن سعدان فصلى صلاة لم أر قط أسخف منها فقلت له

(١) لعل صوابه : أوصلك ·

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

يا با علي هذه ليست صلاة فأحسن صلاتك فان هذه الصلاة كما قال ابن المعتز:

صـلاتك بين الملا نقرة كما اختلس (١) الجرعة الوالغ

فقال لي يا باطلحة أعزك الله هذا فضول لا نعرفه: نحن نصلي صلاة التجار فقلت له هذا أعجب كأن الله عزّ وجل فرض على التجار صلاة غير الصلاة التي فرضها على سائر عباده. وتمام الشعر لابن المعتز مشهور وكان النميري نديمه صلى بحضرته صلاة سخيفة ثم سجد بعدها سجدة طويلة فقال ابن المعتز ارتجالاً البيت الاول وتمامه:

وتسجد من بعدها سجدة كما خُتِمَ المزود الفارغ

* * *

حدثني محمد بن عدي بن زحر البصري جارنا بها قال رأيت أبا اسحاق ياسين رجل كان ينزل بالقرب من المسجد الجامع بالبصرة وقد حدث في آخر عمره يناظر رجلاً في الجامع وهو يقول له قال النبي (٢) صلى الله عليه وسلم «من برّ يوماً بربه والدهر لا يغترّ به».

«للبحث صلة»

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

(١) في الديوان ٢ : ١٦ استلب. (٢) كأن الغرض من هذا الخبر التعجيب من رواية ابي اسحق لهذا الحديث مع انه ليس بحديث.

آراء وافكار

— (١) —

الفرق بين السنة والعام
« في اللغة العربية »

جاءني من الوجيه الفاضل صاحب الامضاء مايأتي :

«أتذكر اني قرأت يوماً في احدى الجرائد نبذة عن كلمتي (السنة) و (العام) وانهما ليستا بمعنى واحد ولكن نسيت ما قاله الكاتب في التفريق بينهما وأرى الكتاب جميعهم يستعملون الكلمتين في معرض واحد . فما معنى (السنة) وما معنى (العام) وما وجه استعمال كل منهما ؟ »

دمشق : غالب الزالق

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(الجواب) — يوجد لعلماء اللغة في هذا الموضوع ثلاثة جوانب من القول :

(أ) ظاهر عبارات متون اللغة انه لافرق بين السنة والعام في المعنى ولا في الاستعمال، فالسنة هي العام والعام هو السنة فعبارة القاموس (السنة العام) وقال في محل آخر (العام السنة) ومثلها عبارة الصحاح . والظاهر من عباراتهم ايضاً ان الحول بمعناهما اي بمعنى السنة والعام فصاحب المصباح يقول (والسنة الحول) ثم قال (والعام الحول) وقال (حال حولاً من باب قال اذا مضى ومنه قيل للعام حول) . وجمعها ثلاثتها احمد بن يحيى (ثعلب) في فصيحه فقال : « والعام والحول والسنة بمعنى واحد ويأتي كل واحد منها على شتوة وصيفة » ويفهم من عبارته الاخيرة ان كلاً من الاسماء الثلاثة يشترط في مدلوله ان يشتمل على (شتوة) اي فصل شتاء كامل و (صيفة) اي فصل صيف كامل ، وذلك بأن نعتبر اول يوم من فصل الشتاء هو اول السنة فيمضي فصل الشتاء ويدخل فصل الصيف حتى آخر يوم منه فتكون السنة قد

تمت اما اذا اعتبرنا يوماً من وسط فصل الشتاء ثم مضى الشتاء ومضى الصيف ودخل الشتاء حتى وصلنا الى اليوم الذي بدأنا به • فان هذه الايام التي مضت لا تؤلف لنا سنة وانما ألفت منها انصافاً غير متوالية • فاطلاق اسم الحول والسنة والعام عليها تجوّز وتسامح • هذا هو استعمال الكلمات الثلاث في فصيح كلام العرب عند ثعلب • وان كان لثعلب قول آخر اخبروا به الجواليقي من دون ان يسمعه هو منه كما يأتي •

(٢) مامر سيف معنى السنة والعام هو ظاهر متون اللغة أما الشراح فقد ذكروا فرقاً بينهما قال ابن الجواليقي : ان عوام الناس لا يفرقون بين العام والسنة ويجعلونها بمعنى واحد فيقولون — لمن سافر في اي يوم من ايام السنة الى ان يعود ذلك اليوم — انه قد انقضى على سفره عام (يعني كما يقولون : انقضت على سفره سنة) قال وهذا غلط والصواب ما أخبرت به عن احمد بن يحيى (هو ثعلب نفسه) انه قال : (السنة) من اي يوم عددته الى مثله و(العام) لا يكون الا شتاء وصيفاً اه يعني كاملين كما سر بيانه بحيث لا تكون البداءة من وسطها بل من أولها • أما السنة فبدأتها من أي يوم أردت : من اول الشتاء واول الصيف أو من وسطها • إذن كل عام هو سنة وليست كل سنة عاماً فقد تقول أقمت في بيروت سنة ولا يصح ان تقول أقمت عاماً اذا كانت بداءة إقامتك من يوم واقع في وسط الشتاء وبقيت الى ذلك اليوم من الشتاء القابل • وحاصل الفرق ان السنة لا تسمى عاماً ما لم تتألف من صيف وشتاء كاملين متواليين والى هذا ذهب ايضاً الازهري وصاحب لسان العرب فقد قالا (العام الحول يأتي على شتوة وصيفة) •

(٣) وهناك فرق آخر بين كلمتي السنة والعام نشأ عن التجوز في استعمال العرب لكلمة (السنة) مذ أصبحوا يريدون بها القحط والجدب والشدّة • قال ابن ابي الحديد في (شرح النهج) والسنة اسم لكل عام ثم غلبت على عام القحط • وقد شاع هذا الاستعمال على لسانهم بحيث اذا أطلقوا كلمة (سنة) فُهم منها هذا المعنى سيف الأعم الأغلب وعليه الحديث الشريف (اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف) يعني سني شدة وقحط • واستعمالها هذا جعل الفصحاء اذا أرادوا سنة الرخاء والخصب يعدلون عن استعمال كلمة (سنة) الى كلمة (عام) : فيقولون أخذهم الله بالسنة أو بالسنين وأكلتهم السنة أو السنون • ومنه قوله تعالى (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين) كل ذلك مجاز عن شدة القحط • فهذا أكثر استعمال

لفظ (السنة) بخلاف العام فانه يستعمل في الخصب والرخاء . ومن ثم يقول العرب (عام الفيل) لأنه كان عام خير فرج الله فيه عن العرب كربهم وشدتهم التي أنزلها بهم أبرهة الحبشي وفيله (محمود) . وقال الراغب في (المفردات) العام كالسنة لكن كثيراً ما تستعمل السنة في الحول الذي يكون فيه الجدب والشدة ولهذا يعبر عن الجدب بالسنة ويعبر بالعام في مافيه رخاء وخصب قال تعالى : (عام فيه يُغاث الناس وفيه يعصرون) وقال تعالى (فلبث فيهم الف سنة الأ خمسين عاماً) . قال الراغب وفي هذه الآية (الأخيرة) نكتة لطيفة حيث عبر عن المستثنى بكلمة (العام) وعن المستثنى منه بكلمة (السنة) لأن الخمسين سنة مضت قبل بعثة نوح عليه السلام وقبلها لم يحصل له اذى من قومه (يعني فكانت سنة هناء ولذا قال خمسين عاماً) واما بعد بعثته فهي شدة عليه (يعني ولذلك قال الف سنة) اه .

هذا حاصل ماقاله علماء اللغة في معنى العام والسنة . فبعضهم وحّد بينهما وبعضهم فرّق والتفرقة من جهتين : من جهة وضع اللغة الأصلي ومن جهة استعمال البلغاء الطارئ .

على ان التفرقة في الحالتين أغلبية لامطردة فان من تتبع كلام الفصحاء وجدهم كثيراً ما خالفوا فلم يفرقوا ولاسيما في زماننا فان المتكلمين حتى البلغاء منهم قلما يفرقون في الاستعمال بين (السنة) و (العام) الا المدقق الحريص على جعل أسلوبه مطابقاً لقوانين البلاغة وأساليب القرآن فإنه يراعي الفرقين المذكورين .

المغربي

« بحث لغوي »

جرت مناقشة بين الاستاذين (محمد عبد البديع) و (محمد دسوقي) من علماء الازهر بشأن صحة استعمال بعض الكلمات والأساليب نلخصها في ما يلي :

(١) قولهم (تساءلت) مسندةً الى ضمير المفرد انكر صحتها الاول وأجازها الثاني فقال انها مثل (تقاضيت) لان تفاعل كما يكون بين اثنين يكون من واحد . قال ابن قتيبة

في أدب الكاتب « تأتي تفاعلت من واحد كما جاءت فاعلت من واحد تقول تراءيت له وتمارضت في ذلك وتعاطيت كذا » ·

(٢) قولهم (السوس ينخر في العظام) انكر صحته الاول وأجازه الثاني فقال انه صحيح اذا كان ينخر مجازاً عن يفسد والمجاز غير محجور بل هو أبلغ من الحقيقة ·

(٣) قولهم (الأجانب في مصر متمتعون بينما نحن محرومون) أنكر جوازه الاول وأجازه الثاني وقال انه صحيح اذا جعلنا جواب بينما محذوفاً دل عليه قولهم (الاجانب في مصر متمتعون) لان حذف الجواب لقرينة مسموع لغة ·

(٤) قولهم (كلما سُقي الحنظل كلما ازداد مرارة) اتفقا على تخطئته لما فيه من تكرر أداة الشرط · « المغربي »

تعليق الاستاذ الزنجاني

« على مقال الاستاذ عبد الرازق »

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ورد في ج ٧ من سنة ١٢ من مجلة المجمع ترجمة الفيلسوف الشهير ابي نصر الفارابي بقلم الاستاذ الجليل مصطفى عبد الرازق أجاد وأفاد فيما كتب واعتمد فيها على الكتب المعروفة الموجودة فيها ذكر هذا الفيلسوف ولسنا في صدد البسط في ترجمته وذكر ما ورد منها في غير المصادر التي اعتمد عليها الاستاذ إنما الغرض الاشارة الى بعض ملاحظات حصلت لنا اثناء مطالعة مقاله ·

قال في ص ٣٨٦ والفارابي منسوب الى (فاراب) ولم يشذ عن القول بذلك الا ابن النديم في الفهرست فانه يقول أصله من (الفارياب) من أرض خراسان والا البيهقي في كتابه المخطوط في تاريخ الحكماء فانه يذكر ان الفارابي من فارياب (تركستان) ·

أقول فاراب كما نص عليه كثير من المؤرخين وجغرافيي المسلمين بلدة وراء نهر سيحون شمالي شاش وتعرف الآن (باطرار) ولها ذكر في تاريخ حملات جنكيزخان الى الممالك الاسلامية وفي ترجمة تيمورلنك الفاتح الشهير واما (فارياب) فهي قصبة من بلاد خراسان

من أعمال جورجان وقد نسب اليها جماعة من اهل العلم ايضاً وعلى كل حال فابو نصر منسوب بلاشك الى فاراب تركستان كما انه ينسب اليها ايضاً اسماعيل بن حماد الجوهري صاحب كتاب الصحاح في اللغة وخاله اسحق بن ابراهيم صاحب (ديوان الادب) في اللغة ايضاً وغيرهما .

وهذا الوهم انما نشأ عن تشابه الكلمتين وتقارب بلاد تركستان وبلاد خراسان .

وذكر الاستاذ في ص ٣٨٩ بعد ذكر انتقالات ابي نصر الى الشام فمصر وغيرهما « وكلام المؤرخين مضطرب في امر هذه الانتقالات وقد أورد ابن خلكان في كتاب الوفيات ان ابا نصر ذكر في كتابه المرسوم بالسياسة المدنية انه ابتدأ بتأليفه في بغداد وأكمله بمصر » ثم علق الاستاذ المترجم عليه بانه ليس في كتاب السياسة المدنية المطبوع شيء من هذا .

أقول ان هذه الفقرة وردت في بعض نسخ الكتاب القديمة والظاهر ان ابن خلكان وابن ابي أصيبعة استندا في ذلك الى النسخ القديمة الموجودة في زمانهما فقد رأيت في نسخة مخطوطة من كتاب السياسة تاريخ كتابتها سنة ٦٧٧ ذكرت في اولها العبارة التي نقلها ابن ابي أصيبعة وهذا نصها : « كان ابو نصر الفارابي ابتدأ بتأليف هذا الكتاب ببغداد وحمله الى الشام في آخر سنة ثلاثين وثلاثمائة وتممه بدمشق في احدى وثلاثين ثم نظر في النسخة بعد التحرير فأثبت الأبواب التي في الحواشي بخطه ثم سأله بعض الناس ان يجعل الكتاب فصولاً فعمل الفصول بمصر سنة سبع وثلاثين وجعلها مضافة الى الكتاب وهي ستة فصول » وهي كما يظهر مشابهة لعبارة طبقات الأطباء ثم ورد في النسخة بعد ما نقلنا هذا ما وجدنا في النسخ ونحن تركنا الفصول اختصاراً وكتبنا الابواب في الحواشي اه » .

ونقل الاستاذ في ص ٣٩٠ عند ذكر وفاة الفارابي عن البيهقي خبراً انه قتل حين ارتحاله من دمشق الى عسقلان ثم شك في صحة هذا الخبر واحتمل تحريفه لما رواه المؤرخون عن مقتل ابي الطيب المتنبي الشاعر المشهور في عودته من بلاد فارس الى الشام سنة ٣٥٤ هـ .

أقول قد ذكر هذا الخبر غير البيهقي ايضاً من المؤرخين منهم صاحب كتاب (تلخيص

الآثار[١]) فانه قال ان فاراب ولاية في تخوم الترك بقرب بلد ساغون وهي ارض سبخة ذات غياض ومقدارها في الطول والعرض أقل من يوم الا ان بها منعة وبأساً وينسب اليها ابو نصر محمد بن احمد بن طرخان الفارابي صاحب العجائب وانه اول حكيم نشأ في الاسلام وكان سياحاً عالماً بانواع الحكمة وبالاكسير . ثم قال في خبر وفاته إنه كان في قافلة تمشي في فلاة فوقع عليهم اللصوص وكان حاذقاً في الرمي فقاتل حتى قتل في سنة اربعين وثلاثمائة .

ولا منافاة بين ذلك وبين صلاة سيف الدولة عليه ودفنه بالشام فانه نقلت جنازته اليها بل قد نقل ذلك المؤرخ الفارسي الشهير (خواندمير) صاحب التاريخ الكبير المسمى بروضة الصفاء وقال انه قتل بايدي قطاع الطريق عند خروجه الى سفر عسقلان وكان ذلك بعدما نفدت سهامه وهو يحدّد بها (كذا) في المحاربة معهم . وكان ماهراً في الرماية ولما سمع بواقعته سيف الدولة أرسل في طلب قاتليه حتى أخذوا جميعاً فأمر بهم ان يُصلبوا حيث كان به مدفن الرجل ويتركوا على الجذوع منكسين الى ان هلكوا بهذه العقوبة اه » .

واما شك الاستاذ في اتصاله بالصاحب بن عباد كما نقله عن البيهقي وذكره غيره ايضاً فالظاهر انه محله لما ذكره ويمكن ان يكون ذلك الاتصال وقع بينه وبين ابن العميد الذي كان قبل الصاحب واشتبه ذلك على الناقلين فنسبوه الى الصاحب .

زنجان (ايران) : ابو عبد الله الزنجاني

---

(١) كتاب أكثر صاحب روضات الجنات في النقل عنه .

مطبوعات حديثة

—(١)—

الجاحظ

« لشفيق بك جبري طبع بدمشق سنة ١٣٥١ — ١٩٣٢ م ص ٢٥٠ »

رأى قراؤنا في السنة الماضية في محاضرات الاستاذ شفيق بك جبري التي حاضر بها في كلية الآداب بدمشق وكيف نظر في الجاحظ من عامة أطرافه . ويذكرون انه كان في السنة التي قبلها حاضر تلاميذه في المتنبي وسلك على هذا الغرار في تحليل شعره . تكلم في حولين على حياة شاعر وعلى حياة كاتب ، هما ولا شك من أئمة هذا الشأن في اللغة العربية . وانا لنغتبط ان رأينا كثيرين من الباحثين في الأيام الأخيرة يتناولون أحد الشعراء أو الكتاب من الأقدمين بالبحث في خصائصهم ، ولكن الاجادة قلما كتبت الا لأفراد بحثوا في الموجود من آثارهم بحثاً دقيقاً ، وفكروا في الاستخراج والاستنباط تفكيراً عميقاً ، وهذا ما أوغل فيه برفق الاستاذ جبري في تحليل حياة شاعر وكاتب فشكرته الآداب على صنيعه لانه جرى على أسلوب جديد على مثال أدباء الغرب عندما يريدون تصوير عظماء رجال الادب ولا يقبل في هذا العصر غير هذا الأسلوب . وبذلك خرج البحث اليوم ايضاً في تراجم العظماء عن الأسلوب العقيم الذي جرى عليه معظم كتاب التراجم والطبقات قديماً فنقلوا في مترجميهم الغث والسمين بدون تعليل ولا تحليل . وحبذا لو توسع الباحثون في هذا الصنف من الأدب ونبشوا دفائن الكنوز التي أورثنا إياها الأجداد . وعانوا النظر فيها بمنظار العصر واصوله على ما فعل الاستاذ جبري في حياة الجاحظ والمتنبي ، لموقفنا بهذا الأسلوب الجميل ، على ما انطوى عليه هذان العظيمان من الخصائص النادرة .

م . ك

معهد الآداب في الجزائر

— وعيده الخمسيني (١٨٨١ — ١٩٣١) —

« ص ٥٦٠ طبع في الجزائر سنة ١٩٣٢ »

Cinquantenaire de la Faculté des Lettres d' Alger
(1881 — 1931)

هذه ثنتان وعشرون مقالة في موضوعات مختلفة كتبها اثنان وعشرون أستاذاً من أساتذة مدرسة الآداب في جامعة الجزائر ونشرت بعناية الجمعية التاريخية الجزائرية . وفيها بعض الصور الجميلة عند الاقتضاء . ومما يلفت النظر من أبحاثها الصراع عند العرب للاستاذ (ماريوس كانار) ، وكتاب مخطوط لابن زيدون كتبه لابي بكر بن الافطس صاحب باجة من قلم الاستاذ (كور) ، ونظرات في مملكة المرابطين أوائل القرن الثاني عشر للاستاذ (ليفي بروفنسال) ، ومنبر جامع ندروقه للاستاذ (جورج مارسيه) ، ومنع تمثيل رواية محمد لدي بورديه من قلم الاستاذ (مارتينو) ، وعشرون قصيدة لحافظ الشيرازي مترجمة عن الفارسية للاستاذ (هنري ماسيه) ، وأشعار للامير عبد القادر أنشأها في الجزائر وفي فرنسا الخ . وكلها تنم عن بحث ودرس . وهناك كلام على عدة كتب صدرت مؤخراً بالفرنسية عن الجزائر وما اليها في الجغرافيا والتاريخ والطوبوغرافيا وطبقات الارض وغير ذلك . م . ك

رسالة الدر الثمين

« لمؤلفها الشيخ أحمد محمد الفساطوي الطرابلسي[1] ص ٩٠ »

رسالة تبحث في مزايا الاسلام وخصائصه ، ومؤاخاته للعلم والعقل في جميع الادوار ، وسبق القرآن الى تقرير العلوم والفنون والصناعات ، وانطباق آياته الفنية على المخترعات والمكتشفات ، وبيان معجزاته التي ظهرت في عصر العلم ، والمدنية الاسلامية وأثرها في اوربا . ومن أجمل فصوله ما كتبه تحت عنوان : « الافتراء على الاسلام » وقول بعض

---

(١) نسبة الى طرابلس الغرب

متعصبي الافرنج : « انه ما دان به شعب الا تأخر وتقهقر » فقد أجاد في رده وأحسن .

وإنا نوجه أنظار المؤلف الى تصحيح الآيات الكريمة بدقة وعناية وهي في (ص ٨ ، ١٤ ، ١٦ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٤٥ ، ٧٧) والى تصحيح الأحاديث بمارضتها على الأصول ، وقد أورد (في ص ٤٥) : « من أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم » مرفوعاً الى النبي (ص) فعجبت له ، وراجعت من اجله مابين يدي من كتب السنة المشهورة فلم أجده في شيء منها ، حتى ولا في كتب الموضوعات ، والمعروف انه من كلام الامام الشافعي ، وهناك أحاديث أخرى إما ضعيفة أو موضوعة وما في الصحيح يغني عنها .

محمد بهجة البيطار

عضو المجمع العلمي

عبدة الشيطان في العراق

« للسيد عبد الرزاق الحسني ، طبع في مطبعة العرفان بصيدا »

« سنة ١٣٥٠ ص ٨٠ »

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الصلاح أو التصوف ان لم يقترن بعلم صحيح كان فتنة لصاحبه وللناس ايضاً ، وامام اليزيدية عدي بن مسافر البعلي مولداً ، الهكاري — نسبة الى جبال هكار من أعمال الموصل — موطناً ومدفناً ، المتوفى في منتصف القرن السادس للهجرة — كان على ماوصفنا ، فقد أجمع المؤرخون على صلاحه ، وافتتن الألوف بتقشفه وزهده ، وغلوا غلواً كبيراً في حبه ، ثم تراخى العهد على موته فألهوه وعبدوه ، وكان ينهى في حياته عن لعن إبليس — تفادياً عن لعن غيره فألهوا ابليس من بعده وعبدوه ، وقال بصلاح يزيد الأموي فألهوا يزيد وعبدوه أيضاً ، وهذا هو سبب تسميتهم باليزيدية على الأرجح ، وهذه الرسالة تكشف السر عن هذه الامور كلها ، وتوضح منشأ هذه النحلة وتطورها .

محمد بهجة البيطار

درس في وادي النطرون

« ورهابينه وادياراته »

Etude sur le Wadi Natroun, ses moines et ses couvents

كتاب باللغة الافرنسية وضعه صاحب السمو الامير عمر طوسون ، شرح به وادي النطرون جغرافياً واتى على تاريخ ما كان عليه في القرون الغابرة وماقامت عليه من الديارات التي أوت اليها الرهبان القبط . فسمى الأديار باسمائها والرهبان بجماعاتهم . وهو درس أثري دقيق عاني به سمو المؤلف لا مشقة المطالعات الكثيرة فحسب بل ومشقة السفر الى تلك الارضين النائية ليدرس بنفسه الامكنة والخرائب ويطبقها على المعلومات التي استخلصها من بطون الكتب القديمة ، وتلك مشقة لا يستطيعها الا من كان في بحبوحة كالامير .

وادي النطرون هو جزء من السودان الأعلى موقعه في قفار لبيبة طوله ستون كيلومتراً وعرضه نحو العشرة فيه برك كثيرة ذات الماء المالح تكثر فيها مادة النطرون (اي الصودا) لذلك دعي الوادي بهذا الاسم ، واسمه الروماني القديم (Nome nitriote) وعنه عُرّب الاسم المعروف به اليوم .

معلومات هذا الكتاب دقيقة جداً من الوجهتين التاريخية والاثرية ، ومجموعها سند أكيد يصح ان يرجع اليه المؤلفون لأن الأصول التي استند اليها وأخذ عنها المؤلف لا تصل اليها الأيدي بلا عناء فأكثرها عبارة عن مخطوطات مدفونة في الاديرة القديمة وفي المكاتب المهمة كمكتبة الفاتيكان يتعذّر على أي كان الوصول اليها .

عبد الله رعد

أسماء البنات

رسالة تقع في ثنتين وسبعين صفحة من القطع المتوسط تبحث في معاني أسماء البنات

وعلاقاتها التاريخية وأشهر النساء اللاتي دعين بهـا من قلم الاديب امين الغريب صاحب مجلة الحارس .

نصفحناها فألفيناها رسالة ناجحة من حيث طرافة الموضوع والاستقصاء التاريخي والأسلوب العربي الجيد لخليق بالسيدات والاديبات الا تفوتهن مطالعتها . فله منا الثناء وله من الله الثواب .

عبد الله رعد

اتجاه الاسلام

Whither Islam? a Survey of Modern Movements in the Moslem World. By H. A. R. Gibb

كتاب باللغة الانكليزية تأليف الاستاذ «جب» مدرس اللغة العربية في جامعة لندن . توخى به البحث عن حقيقة النفسية الاسلامية والمؤثرات فيها وعن حالة الجماعة الاسلامية وصلاتها بالجماعات الانسانية الأخرى واتجاه العالم الاسلامي نحو الحضارتين الغربية والشرقية .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

وبالنظر لما يقتضيه مثل هذا البحث من الدقة والتعمق في درس كل شعب من الشعوب الاسلامية ومعرفة اللغات العربية والتركية والفارسية والاردوية والجاوية والملايو لم يجد المؤلف مندوحة عن الاستعانة بعلماء المشرقيات فكتب الى الاستاذ ماسينيون بجامعة باريز ليبحث له في شعوب افريقية الشمالية ما عدا مصر ، والاستاذ كامبفماير في سكان مصر وآسيا الغربية (الشرق العربي وتركيا وفارس والافغانستان) ، والاستاذ برج في سكان اندونسيا ، واللفتننت كولونيل فراز في شعوب الهند . اما المؤلف فقد كتب المقدمة والخاتمة التي حاول فيها ان يصور اتجاه الشعوب الاسلامية في العصر الحاضر وموقفها من العالم الاوربي وموقف الغرب من الاسلام وما يرجى ان تكون العلائق في المستقبل بين الفريقين . ويعتبر الاستاذ «جب» ان الاسلام الذي يبلغ عدد اتباعه حسب الاحصاآت الأخيرة مائتين وخمسين مليون نفس موزعين في العالم توزيعاً جغرافياً عجيباً يجعلهم في حكم المتصلين بعضهم بالبعض الآخر — هو اكبر عامل للتوازن بين فوضى الوطنية الاوربية

وبين زحف الشيوعية الروسية · وفي آخر الكتاب مصوّر يبين الاماكن التي يسود فيها الاسلام والاصقاع التي هم فيها أقلية ·

عبد الرحمن الجوخدار

وصف المخطوطات الشرقية

« في خزانة ادوارد براون »

A Descriptive Catalogue of the Oriental Mss. Belonging to the late E. G. Browne. By Edward G. Browne

كتاب باللغة الانكليزية ألفه الاستاذ (رينولد نيكلسون) وهو مجموعة حوت فهرساً مفصلاً للتآليف والمخطوطات الشرقية التي تملكها مكتبة الاستاذ المستشرق المرحوم ادوارد براون وفيها الكتب الباحثة في الاديان والفلسفة والتاريخ القديم والعلوم الطبيعية والطب والشعر العربي والفارسي والموسيقى والفنون الجميلة ·

وقد أورد المؤلف في المقدمة تاريخ حياة الاستاذ براون منذ يوم نشأته حتى تاريخ وفاته سنة ١٩٢٦ وما مرّ عليه من الأدوار في دراسته التاريخ والأدب الفارسي والعربي ، وفي سياحته الى بلاد العجم ، وما ألف بعد ذلك من الكتب ، وأهمها : تاريخ الأدب الفارسي ، الصحافة والأدب في بلاد الفرس الجديدة ، البهائية ، الطب العربي والثورة الفارسية · وتقع هذه الابحاث في ٣٢٥ صفحة ·

عبد الرحمن الجوخدار

الاشراف في منازل الاشراف

« لابن ابي الدنيا »

التعريف بالمؤلف وتأليفه

هو عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس ابو بكر القرشي (وفي رواية عبيد الله بدلاً من عبد الله والقشيري بدلاً من القرشي) وهو قرشي من ولاء مولى بني امية المعروف بابن ابي الدنيا « صاحب الكتب المصنفة في الزهد والرقائق » « وهو أحد الثقات المصنفين للاخبار والسير وله كتب كثيرة تزيد على مائة كتاب » عدَّ منها صاحب الفهرست ثلاثة وثلاثين كتاباً وقال انه كان زاهداً ورعاً . ولد في بغداد سنة ٢٠٨ وتوفي سنة ٢٨١ هـ وأخذ العلم عن جماعة من علماء عصره وروى عنه جماعة وقالوا انه صدوق . ولما مات قال اسماعيل بن اسحاق القاضي : رحم الله ابا بكر مات معه علم كثير .

وتولى ابن ابي الدنيا تربية المعتضد وابنه المكتفي من خلفاء بني العباس فكان مؤدبهما وكتب اليهما :

ان حق التأديب حق الأبوة عند أهل الحجا واهل المروة
وأحق الأنام ان يعرفوا ذا ك ويرعوه أهل بيت النبوة

وكان اذا جالس احداً ان شاء أضحكه وان شاء أبكاه . قال : دخل المكتفي على الموفق ولوحه بيده . فقال : مالك لوحك بيدك قال مات غلامي واستراح من الكتاب . قال ليس هذا من كلامك ، هذا كان الرشيد أمر ان تعرض عليه ألواح أولاده في كل يوم اثنين وخميس ، فعرضت عليه فقال لابنه : مالغلامك ليس لوحك معه ؟ قال : مات واستراح من الكتاب ، قال : وكأن الموت أسهل عليك من الكتاب . قال : نعم .

قال : فدع الكتاب · قال : ثم جئته فقال لي : كيف محبتك لمؤدبك · قال : كيف لا أحبه وهو اول من فتق لساني بذكر الله ، وهو مع ذاك ان شئت أضحكك واذا شئت أبكاك قال : ياراشد أحضرني هذا · قال : فاحضرت فقربت قريباً من سريره ، وابتدأت اخبار الخلفاء ومواعظهم فبكى بكاءً شديداً · قال : فجاءني راشد فقال لي : كم تبكي الامير · فقال : قطع الله يدك ما لك وله ياراشد ، تنح عنه · قال : وابتدأت فقرأت عليه نوادر الاعراب · قال : فضحك ضحكاً كثيراً ، ثم قال شهرتني شهرتني ، وذكر الخبر بطوله · قال ابو ذر القاسم بن داود الكاتب أحد من أخذ عن ابن ابي الدنيا لاحمد بن محمد بن الفرات : أجرى له خمسة عشر ديناراً في كل شهر · قال ابو ذر : فكنت أقبضها لابن ابي الدنيا الى ان مات ·

وقال ابن ابي الدنيا : كنت أؤدّب المكتفي فأقرأته يوماً كتاب الفصيح فأخطأ ، فقرصت خده قرصة شديدة وانصرفت ، فلحقني رشيد الخادم فقال : يقال لك ليس من التأديب سماع المكروه ، فقال : سبحان الله ، أنا لا أسمع المكروه غلامي ولا أمتي ، قال : فخرج اليّ ومعه كاغد وقال : يقال لك صدقت يا أبابكر ، واذا كان يوم السبت تجيءُ على عادتك ، فلما كان يوم السبت جئت فقلت : أيها الأمير تقول عني ما لم أقل · قال : نعم يامؤدبي من فعل ما لم يجب قيل فيه ما لم يكن ·

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اما الكتاب فهو من مخطوطات دار الكتب المصرية بالقاهرة أخذ بالتصوير ودخل في خزانة المجمع العلمي العربي وهو في ١٩٣ صفحة منصفة القطع كُتب بخط جميل يظن انه من القرن الثامن وقد كتب في أوله : « كتاب الإشراف في منازل الأشراف تأليف ابي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي · ابن ابي الدنيا رواية ابي الحسن احمد بن محمد بن عمر الاصفهاني · »

نماذج من الكتاب

(١) حدثني ابي قال حدثني نصر بن باب قال : أخبرنا داود بن ابي الهند عن الشعبي قال : كتب عمر بن الخطاب الى المغيرة بن شعبة ان استنشد من قبلك من الشعراء ماقالوا في الجاهلية والاسلام ، فأرسل الى الأغلب العجلي فقال أنشدني فقال :

أرجزاً تريد أم قصيدا فقد سألت هيناً موجودا

قال ثم أرسل الى لبيد بن ربيعة فقال : أنشدني فقال : ان شئت أنشدتك مما قد عفي عنه من شعر الجاهلية قال : لا ، أنشدني ماقلت في الاسلام ، فانطلق الى أديم فكتب فيه سورة البقرة فقال : أبدلني الله مكان الشعر هذا . قال : فكتب بذلك الى عمر بن الخطاب . فكتب اليه عمر : انه لم يعرف احد من الشعراء حق الاسلام الا لبيد بن ربيعة ، فانقص من عطاء الأغلب خمس مائة واجعلها في عطاء لبيد . قال : فركب اليه الأغلب فقال تنقص عطائي من ان أطعتك قال : فرد الخمس مائة وأقر في عطاء لبيد الخمس مائة . (ص٧—٨)

(٢) أخبرني العباس بن هشام بن محمد عن أبيه قال : أخبرني مولى لزياد بن ابي سفيان قال : خرج ابو الاسود الدئلي حاجاً بامرأته وكانت جميلة ، فبينا هي تطوف بالبيت اذ عرض لها عمر بن عبد الله بن ابي ربيعة المخزومي فسازلها . فاتت ابا الاسود فأعلمته فأتاه ابوالاسود فكلمه فقال عمر : مافعلت ، فلما عادت الى المسجد عاد فكلمها فأخبرت أبا الاسود فأتاه وهو في المسجد مع قومه فقال :

انت الفتى كل الفتى ولولا خلائق اربع

فسكت عمر ولم يقل شيئاً . فقال ابو الاسود لامرأته : انه ليس بعائد فلما خرجت الى المسجد كلمها ايضاً فأخبرت ابا الاسود فأتاه وهو في المسجد فقال :

واني ليثنيني عن الجهل والخنى وعن شتم اقوام خلائق اربع
حياء واسلام وتُقيا(؟) واننى كريم ومثلي قد يضر وينفع
فشتان ما بيني وبينك انني على كل حال استقيم وتظلع

فقال له عمر : لا والله ياعم لا أعرض لهذا بعد هذا اليوم ابداً بشيء تكرهه فعفل . (ص١١—١٢)

(٣) وأخبرني العباس بن هشام عن ابيه عن خالد بن سعيد الأموي عن خالد بن عُمير بن الحباب قال : كنا مع مسلمة بن عبد الملك في غزوة القسطنطينية فخرج الينا رجل من الروم فدعا الى المبارزة ، فخرجت اليه فاقتتلنا فسقط كل واحد منا عن فرسه ، فأخذته

أسيراً فأتيت به مسلمة فسأله · قال : وكان رجلاً جسيماً جميلاً فأراد ان يبعث به الى هشام بن عبد الملك وهو يومئذ بحرّان فقلت : أصلح الله الامير ، ان رأيت ان توليني الوفادة به اليه قال : انك لأحقّ الناس بذلك فبعث معي فكلمناه وساءلناه فجعل لا يكلمنا حتى انتهينا الى موضع فقال ما يقال لهذا الموضع قال : فاذا هو فصيح اللسان · قلنا هذا الجريش وتل محرا فقال :

ثوى بين الجريش وتل محرا فوارس من نمارة غير ميل
فلا جزعين ان ضراء نابت ولا فرحين بالخير القليل

قال : ثم سكت فكلمناه وقلنا من أنت فلم يرد علينا شيئا فلما انتهينا الى الرُّها قال : دعوني فلاصلي في بيعتها قلنا : دونك · قال : فصلى وكل ذلك لا يكلمنا · فلما انتهينا الى حران قال : اي مدينة هذه قلنا : هذه مدينة حران · قال : اما انها اول مدينة بنيت بعد بابل ثم سكت فأقبلنا عليه فقلنا كلمنا ماحالك ، فأبى ان يكلمنا فلما دخلنا حران قال : دعوني حتى استحم في حمامها ، فاطّلى · ثم خرج كأنه برطيل فضة بياضاً وعظماً قال : فأدخلته على هشام وأخبرته كيف كان امره وماجعل يسألنا عنه فقال له هشام : ممن انت قال : انا رجل من إياد ثم احد بني حُذافة فقال : ويحك أراك رجلاً عربياً لك جمال وفصاحة فاسلم تحقن دمك ونسني عطاءك قال : ان لي بالروم اولاداً قال : ونفك ولدك قال : وما كنت لارجع عن ديني ، فأقبل به هشام وأدبر فأبى ، فقال : دونك فاضرب عنقه · قال فضربت عنقه (ص١٢—١٤)

وقد ذكر ياقوت في معجم البلدان هذه القصة عن احمد بن محمد الهمذاني عن خالد بن عُمير بن عبد الحباب السُّلَمي بالفاظها الا قليلاً ، وليس فيها من الاختلاف الا في مسألة المبارزة ، ففي رواية ياقوت : فخرج الينا في بعض الايام رجل من الروم يدعو الى المبارزة ، فخرجت اليه فلم أر فارساً مثله ، فتجاولنا عامة يومنا ، فلم يظفر واحد منا بصاحبه ، ثم تداعينا الى المصارعة فصارعت منه أشدّ الناس فصرعني وجلس على صدري ، ليذبحني وكان رسن دابته مشدوداً في عنقه ، فبقيت أعالجه دفعاً عن روحي ، وهو يعالجني ليذبحني ، فبينما هو كذلك اذ جاضت[1] دابته جيضة جذبته عني ، ووقع على صدري فبادرت وجلست على

(١) جاضت حادت وانحرفت ·

صدره ، ثم نفست به عن القتل وأخذه أسيراً . وبقية القصة ليس فيها شيء من الاختلاف وفي ياقوت كان البيت الثاني من اللذين أنشدهما الفارس الايادي :

فلا تجزعون ان ضراء نابت ولا فرحون بالخير القليل

(٤) وأخبرني العباس بن هشام عن أبيه عن عوانة قال قال الحجاج للحكم بن المنذر ابن الجارود : ما تلبس في الشتاء قال : ظاهر الخز . قال ففي الربيع قال : العَصْب . قال ففي الصيف قال : ثياب سابور . قال : فتشرب اللبن قال : لا قال : ولمَ ؟ قال لانه مذفرة مجفرة . قال : فتشرب الطلا قال : لا قال : لمَ . قال : لانه مبيسة منفخة مقطعة . قال : فما تشرب قال : نبيذ الدقل في الصيف ، ونبيذ العسل في الشتاء . قال : أنت الذي يقول لك الشاعر :

يا حكم بن المنذر بن جارود سرادق المجد عليك ممدود
أنت الجواد والجواد محمود

قال : نعم قال : اما والله لأجعلن سرادقك السجن ، ثم قال الحكم :

متى ما أكن في السجن في حبس ماجد فاني على ريب الزمان صبور
فلو كنت خفت النكث والغدر لم أجب دعاك اذا كان الامان غرور
لقد كنت دهراً ما أخوف بالتي تخاف وما يسطو عليّ أمير

فقال له الحجاج مالك لا تبالي من تزوجت ، قال : اني لا أنشرف بمن وهن بنشر فمن بي . (ص٣٠ — ٣٠)

(٥) حدثني الحسين بن عبد الرحمن قال : أوصت أعرابية من بني جشم بنتاً لها ليلة هدائها فقالت :

سليلة السادة من فرعي جُشَمْ
مضى الشباب ودنا وفدُ الهَرَمْ
وهاضني الدهر بعراق السَقَمْ
وقرب القول مضت أم الحكم
وزام ناع وحق ما زعم
بانني رهن ضريح ورَجَم

فالله فاخشي وارهبي لذع الكلم
وحالفي الصدق ومحمود الشيم
فالصدق للبر وللفعل ادم
والبخل لا تزري به عند العدم
ولا تذيعن عليه ما كتم
ولا تردي قوله اذا احتدم
فانه يعقب مذموم الندم
هذي وصاتي قبل حين اخترم (ص٤٢)

(٦) حدثنا عبد الرحمن بن صالح الأزدي قال حدثنا اسماعيل بن عياش عن محمد ابن يزيد الرحبي ومحمد بن الحجاج الخولاني عن صهوة بن روبم اللخمي قال : كتب عمر ابن الخطاب رحمة الله عليه الى ابي عبيدة بن الجراح كتاباً فقرأه على الناس بالجابية : من عبد الله عمر امير المؤمنين الى ابي عبيدة بن الجراح سلام عليك . اما بعد فانه لم يُقم أمر الله في الناس الا حصيف العقدة ، بعيد الغرة ، لا يطلع الناس منه على عورة ، ولا يُحنق في الحق على جرة ، ولا يخاف في الله لومة لائم والسلام عليك .

قال وكتب عمر الى ابي عبيدة : اما بعد فاني كتبت اليك بكتاب لم آلك ونفسي فيه خيراً ، الزم خمس خلال يسلم لك دينك ، وتحظى بافضل حظك : اذا حضرك الخصمان فعليك بالبينات العدول ، والأيمان القاطعة ، ثم ادن الضعيف حتى ينبسط لسانه ، ويجترئ قلبه ، وتعاهد الغريب ، فانه اذا طال حبسه ترك حاجته وانصرف الى أهله ، واذا الذي أبطل حقه من لم يرفع به رأساً ، واحرص على الصلح ما لم يتبين لك القضاء والسلام عليك . (ص ٤٤ — ٤٥)

(٧) قال زُبير بن ابي بكر أنشدني يحيى بن الزبير بن عمرو بن الزبير :

وتلفتُ في الديار خلاءً	ومضى للسبيل كل حبيب
وخلت بعد مجلس من كهول	وشباب بها حماة وشيب
وتخلفت بعدهم في أناس	جهلوا حرمتي وحق مشيبي

قدرماني الكبير بالغل منهم ورواه الصغير بالتأديب
غير ما جارم ذنوباً ولكن منع البر ضغن تلك القلوب
فالى الله أشتكي ذاك اني صرت في الدار كالبعيد القريب (ص ٥١)

(٨) حدثنا علي بن الجعد قال : اخبرني شعبة عن ابي عمران الجوني عبد الملك بن حبيب قال : كتب عمر بن الخطاب الى ابي موسى الاشعري : انه لم يزل للناس وجوه يرفعون حوائج الناس ، فأكرم وجوه الناس ، فحسب المسلم الضعيف من العدل ان ينصف في الحُكم والقِسمة (ص ٥٠)

(٩) حدثنا ابي قال حدثنا هشام بن محمد عن ابي محمد القرشي قال : مرَّ مسلمة بن عبد الملك بقبر الوليد بن عقبة بن ابي مُعيط بالرقة فقال : قبر مَن هذا ، قيل قبر الوليد ابن عقبة قال : رحم الله اباوهب وحمل بثني عليه ، فقبر مَن هذا الآخر قيل قبر ابي زُبيد الطائي الشاعر قال : وهذا فرحمه الله فقيل انه كان نصرانياً ، قال : انه كان كريماً (ص ٥٣)

(١٠) حدثني سليمان بن ابي شيخ قال قتل أبان بن سعيد بن العاص يوم أجنادين شهيداً ، وقتل خالد بن سعيد بن العاص يوم مرج الصُفَّر شهيداً ، وكانت امرأته أم حكيم بنت الحارث بن هشام دخل بها بمرج الصُفَّر فخرج وهو عروس فقاتل فقتل ، وخرجت هي بعمود فقتلت سبعة من الروم وكانت قبله تحت ابن عمها عكرمة بن ابي جهل فقتل عنها يوم فحل ، فلما انقضت عدتها خطبها يزيد بن ابي سفيان وخالد بن سعيد فخطبت الى خالد ثم تزوجها عمر بن الخطاب فهي التي تسحر عندها عبد الرحمن بن الحرث لان ام عبد الرحمن فاطمة بنت الوليد بن المغيرة ماتت قبل ذلك بدهر ، وهي ام ام حكيم ، واستشهد قبل ذلك الحكم بن سعيد بن العاص يوم مؤتة مع جعفر بن ابي طالب ، واستشهد مع رسول الله (ص) يوم حصن الطائف سعيد بن العاص . وحدثني محمد بن عباد العُكلي قال سمعت عبد العزيز الاموي يحدث عن اهل بيته قال ولد سعيد بن العاص ابو احيحة ثمانية رجال لم يمت احد منهم على فراشه فقتل ثلاثة مع المشركين وقتل أحيحة يوم الفجار وقتل العاص بن سعيد بن العاص وعبيدة بن سعيد بن العاص يوم بدر وقتل

سعيد بن (٠٠) يوم الطائف وقتل الحكم بن سعيد يوم اليمامة وكان يعلم الحكمة بالمدينة وقتل خالد يوم مرج الصفّر وهو الذي يقول :

مَن فارس كره الكماة بعيرني رمحاً اذا نزلوا بمرج الصفر

وقتل أبان وعمرو يوم أجنادين وقال ابن الكلبي قتل عمرو يوم فِحل (١١٨ — ١٢٠) قلنا فانظر الى مفاداة بني أمية بارواحهم ليوطدوا دعائم الملك الاسلامي وينشروا الاسلام بين الانام ٠

(١١) حدثني محمد بن عباد بن موسى قال حدثنا زياد بن زيان الكلبي عن شرقي بن قُطامي عن الكلبي عن زهير بن منظور عن جارية بن اصرم قال : رأيت وداً في الجاهلية في صورة رجل آدم اشعر مرتد ببرد حبرة مؤتزر باخرى متقلد قوساً وفضة وأمامه حربة مركوزة ، ثم رأيت رسول الله (ص) قدم تبوك فبعث خالد بن الوليد فجعله جذاذاً (ص ١٢٠)

(١٢) أنشدني أعرابي من بني تميم من بني حنظلة :

من تصدى لأخيه بالغنى فهو أخوه
فاذا اضطر اليه راء منه ما يسوه
بكريم المثري فان أملق أقصاه ذووه
نحن في دهر على الـ مُعدِم لا يجدي ابوه
وعلى الوالد لا يفضل ان عال بنوه
لو رأى الناس نبياً سائلاً ما وصلوه
وهم ان طمعوا في زاد كلب أكلوه
لا تراني آخر الد هر بتسآل أفوه
ان من يسأل غير الله بكثر محرموه
والذي قام بارزاق الورى طراً أسلوه
وعن الناس بفضل الله فاغنوا واحمدوه
تلبسوا أثواب عز فاسمعوا قولي وعوه

انت ما استغنيت عن صاحبك الدهر اخوه
فاذا احتجت اليه ساعة مجك فوه
أفضل المعروف ما لم تبتذل فيه الوجوه

(ص ١٢٤ — ١٢٥)

(١٣) حدثنا سليمان بن ابي شيخ قال : حدثنا سليمان بن زياد عن أخيه يحيى بن زياد قال : كان عبد الملك بن مروان يكتب الى الحجاج : جنبني دماء بني عبد المطلب فاني رأيت بني حرب أصابوها فلم يهل لهم (ص١٢٦)

(١٤) وحدثني عبد الرحمن (بن عبدالله بن قُريب) قال حدثنا عمير قال : زعموا ان الحجاج بن يوسف مات ولم يترك الا ثلاثمائة درهم ومصحفاً وسيفاً وسرجاً ورحلاً ومائة درع موقوفة (ص١٣١)

(١٥) أنشدنا الحسين بن عبد الرحمن قال أنشدني الأموي :

من عذيري من قائل اخوانى كلهم في مقاله غير وان
نصحوني بزعمهم قلت كفوا لا أرى شأنكم بلائم شاني
لا أبيع الجزيل من عرض مثلي ببخيس من ناقص الاثمان
ماء وجهي يرد غرب لساني دون ما قد أردتم من بياني
ذهب المبتدون بالاحسان والمكافون بابتذال اللسان
ان ذلك السؤال بأنفه الحر وان عضه مفيق الزمان

(ص ١٣٢)

(١٦) حدثنا هشام بن الوليد قال : حدثنا عبد الله بن حَشْرَج البصري قال : حدثني المستنير بن اخضر عن اياس بن معاوية بن قرة قال : جاءه دهقان فسأله عن السكر أحرام هو ام حلال . فقال : هو حرام . قال : كيف يكون حراماً . قال : أخبرني عن التمر أحلال هو أم حرام . قال : حلال . قال: فأخبرني عن الكشوث أحلال هو أم حرام . قال : حلال . قال : فأخبرني عن الماء أحلال هو أم حرام قال : حلال . قال : فما خالف مابينها وانما هو من التمر والكشوث والماء ان يكون هذا حلالاً وهذا

حراماً • قال : فقال اياس للدهقان : لو أخذت كفاً من تراب فضربتك به أكان يوجعك •
قال : لا • قال : لو أخذت كفاً من ماء فضربتك به أكان يوجعك قال : لا • قال :
لو أخذت كفاً من تبن فضربتك به أكان يوجعك قال : لا • قال : فاذا انا أخذت هذا
الطين فعجنته بالتبن والماء ثم جعلتــه كتلاً ثم تركته حتى يجف ثم ضربتك به أيوجعك
قال : نعم وتقتلني قال : فكذاك هــذا التمر والماء والكشوث اذا جمع ثم عتق حَرُم كما
جفف هذا فأوجع او قتل وكان لا يوجع ولا يقتل (ص ١٣٣ — ١٣٤)

(١٧) حدثنا ابو كريب قالـــ : حدثنا طلق بن غنام قال : حدثنـا شريك عن
عبد الملك بن عُمير قال : كتب المغيرة بن شعبة الى معاوية يذكر فنـاء عمره ، وفناء
أهل بيته ، وجفوة قريش اياه • قال : فورد الكتاب على معاوية وزياد عنـده • فلما قرأ
الكتاب قال له زياد : يا امير المؤمنين ولني إجابته قالـــ : فألقى اليه الكتاب • قال :
فصدّر زياد الكتاب ثم كتب : اما ماذكرت من ذهاب عمرك فانه لم يأكله احد غيرك ،
واما ماذكرت من فناء اهل بيتك ، فلو ان امير المؤمنين قدر ان يقي احداً الموت لوقى أهل
بيته ، واما ما ذكرت من جفوة قريش إياك فانى يكون ذاك وهم امروك • فلما قدم
الكتاب على المغيرة قرأه قال : اللهم عليك زياداً اللهم عليك زياداً • (ص١٣٧)

(١٨) حدثني الحسين بن عبد الرحمن قال : قال شبيب بن شيبة : رأى خالد بن
صفوان رجالاً قد أصابوا مالاً فتكلموا وغلوا فقال :

وأنطقت الدراهم بعــد عي أناساً طال ما كانوا سكوتا
فما عادوا على جار بخير ولا رفعوا لمكرمة بيوتا
كذاك المال يجبر كل عيب ويترك كل ذي حسب صموتا

(ص ١٤٥)

(١٩) حدثنا علي بن حرب الطائي قالـــ : حدثنا اسماعيل بن زياد بن ابي زياد
الفقيمي عن ابي جرير عن الشعبي قال : كان رجل يهدي لعمر بن الخطاب كل عام فخذ جزور
فخاصم اليه رجلاً فقال : يا امير المؤمنين ، اقض بيننـا قضاء فصلاً كما يُفصل الرجل
من سائر الجزور • قال : فقضى عليه عمر ثم كتب الى عماله ان الهدايا هي الرشا (١٥٨)

(٢٠) أنشدني ابو عبد الله بن فنن قوله :

أصبحت أنهض مثل الطفل معتمداً — علي اليـدين كذاك الشيخ يعتمد
من عاش أخلقت الايام جُـدته — تكرهاً وجفاه الأهل والولد
نطوي الليالي وتطوينا فخلقتنـا — وهن من بعد ما أخلقتنا جدد
طال التأوه للضعف الذي أجد — وباد قومي وطال الهم والسُهد
وصرت أرسف بعدالشد من كبر — رسف المقيد بل بي فوق ما أجد
فهل لشيخ كبير لا حراك به — من الزمان طبيب عنده رشد
أين الشباب الذي كنا نعيش به — عيشاً رضياً وأين الجد والجلَد
فقدت للشيب لذات الشباب الا — كل اللذاذة بعـد الشيب تفتقد
أمسي كثيري قليلاً يستدل به — على الفناء ولكن بعد لي امد

(٢١) وأنشدني رجل من اهل البصرة لرجل من بلعنبر :

اذا ما أراد الله ذلّ عشـيرة — رماها بتشتيت الهوى والتخاذل
فأول عجز القوم فيما ينوبهم — تدافعهم عنه وطول التواكل
واول خبث الماء خبث ترابه — واول لؤم القوم لؤم الحلائل

(ص ١٨٨)

(٢٢) حدثني شيخ من بني تميم قال : أوصى رجل ابنه فقال : يابني اغتنم مسالمة من لا بدّ لك بمحاربته ، وليكن هربك من السلطان الى الوحش في الفيافي ، حتى تأمن من سعاية الساعي بك ، وطمع الطامع فيك ، لا يغرنك بشاشة امريء حتى تعلم ما وراءها ، فان دفائن الناس في صدورهم وخُدَعهم في وجوههم ، ولتكن شكايتك من الدهر الى رب الدهر واعلم ان الله اذا أراد بك خيراً او شراً أمضاه فيك على ما أحب العباد او كرهوا . (ص ١٩٢)

(٢٣) سمعت شيخاً من قريش من ولد عمر بن عبد العزيز قال : كتبت الى رجل في حاجة : اني قد بذلت لك من جاهي ما قد صنته عن غيرك ، فضعني من كرمك بحيث وضعت نفسي من رجائك .

حدثني محمد بن الحسن بن مسعود الانصاري قال : حدثني ابراهيم بن مسعود قال : كان رجل من تجار اهل المدينة يختلف الى جعفر بن محمد ويخالفه ويعرفه بحسن الحال فتغيرت حاله فشكا ذلك الى جعفر بن محمد فقال له جعفر :

لا تجزع وان أعسرت يوماً فقد أيسرت في الدهر الطويل
ولا تيأس فان اليأس كفر لعل الله يغني عن قليل
ولا تظنن بربك ظن سوء فان الله أولى بالجميل

قال فخرجت من عنده وأنا من أغنى الناس .

آخر كتاب الاشراف (ص ١٩٣)

هذا آخر النموذجات التي اخترناها وآخر الكتاب .

محمد كرد علي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ماهية الجنون وتاريخه

- ٢ -

الجنون في اللغة العربية — الجنون في اللغة الاستتار . وجن الشيءُ اذا استتر . وأجن الليل الشيءَ اذا ستره . والمجنون من الناس من كان مستور العقل . وقد أطلق العرب كلمة الجنون على جميع الآفات النفسية على اختلافها وتنوعها فقالوا : الجنون فنون ، ولا يخلو العاقل من ضرب من الجنون . وقال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه : ليس من احد الا وفيه حمقة فيها يعيش . وسمى النبي صلى الله عليه وسلم من أبلى شبابه في المعصية مجنوناً . وسمى العرب العاشق مجنوناً . ونعتوا بالجنون من يخالفهم في عاداتهم فيجيءُ بما ينكرون . ولهذا قالوا في النبي صلى الله عليه وسلم حين تحداهم الى الايمان بالله انه ساحر أو مجنون .

فالجنون والحالة هذه كلمة عامة أطلقها العرب على جميع الأحوال النفسية الشاذة . والمجنون عندهم كل من أصيب في نفسه فلم يأتلف مع البيئة عقلاً أو فعلاً أو انفعالاً . وهذا أقصى ما وصل اليه العلم الحديث في تعريف الجنون في العصر الأخير .

غير ان الاصطلاح قد أخرج هذه الكلمة من معناها الذي تقدم ذكره وخصها بمن أصيب في عقله فراح يسب ويخلط ويهذي ويضرب ويخرق الثوب . وقد فقدت اللغة العربية بهذا التخصيص مادة عامة هي في أشد الحاجة اليها اليوم من الوجهة العلمية . ولما كان الرجوع الى كلمة الجنون متعذراً بعد ذلك التخصيص ولما علق بها من معنى الإهانة والتحقير رأينا ان يستعاض عنها بكلمة نُفاس أي مرض النفس اشتقاقاً على القياس كما يقال كُباد وقُلاب . فيقال منفوس كمكبود ومصدور .

أما ما يوجد في اللغة العربية من الألفاظ التي عدّها كثير من علماء اللغة مرادفة لكلمة مجنون فانها في الحقيقة غير مترادفة ونسبتها الى الجنون نسبة النوع الى الجنس . فان لكل

منها معنىً خاصاً يميزها عن الأخرى . وقد لا يوجد في لغة من لغات العالم القديمة والحديثة ما في اللغة العربية من الأسماء الخاصة المتعلقة بالحالات النفسية المرضية . فالقدومة والبلاهة والرعونة والحمق والعته والسبه والهذيان والخرف والزور والمس والخبل والهوس والهلس والوسواس والجذب الى غير ذلك من عشرات الأسماء ما هي الا مسميات لحالات نفسية مرضية مختلفة خاصة . ووجودها قديماً في اللغة يدل دلالة واضحة على كبير إلمام بالاحوال النفسية وخصائصها في تلك العصور الغابرة .

الجنون والشرع الاسلامي — للشريعة الاسلامية فضل السبق على سائر الشرائع القديمة والحديثة بوضع أحكام للمجانين جامعة مطابقة لروح العدل والعلم والاجتماع على اختلاف الزمان والمكان . فهي تنزل المجنون في الحكم وفي المعاملات منزلة الصغير غير المميز أو المميز أحياناً حسب نوع جنونه ودرجته . وتقضي على السفيه والفاسق اللذين يعدهما العلم الحديث من المنفوسين بالحجر محافظة على أموالهم . وتحدد درجات المحجورين والمأذونين منهم وتعرفهم وتبين أنواعهم وتفصل أحكامهم بالنسبة لأنواع التصرفات مما لم تتوفق اليه الشرائع المدنية الحديثة الا في القرن الأخير . فالمجنون في الشرع الاسلامي غير مكلف وهو محجور لذاته . وحكمه حكم الصغير غير المميز اذا كان جنونه مطبقاً . وحكم الصغير المميز اذا كان جنونه قسمياً . وتصرفات المجنون في حال إفاقته كتصرف العاقل . والسفيه المحجور هو في المعاملات كالصغير المميز ووليه الحاكم فقط . ويضمن المجنون الضرر والخسارة اللذين نشآ من فعله . ولا ينفذ حكم القتل على من جن قبل تنفيذ الحكم . ويستند القاضي في اثبات الجنون الى الخبير من الاطباء . الى غير ذلك من الاحكام الكلية المعمول بها في الاسلام منذ الف وثلاثمائة سنة والتي لا تختلف في نصوصها عن الاحكام المرعية اليوم عند أرقى الأمم حضارة وثقافة ومدنية .

***

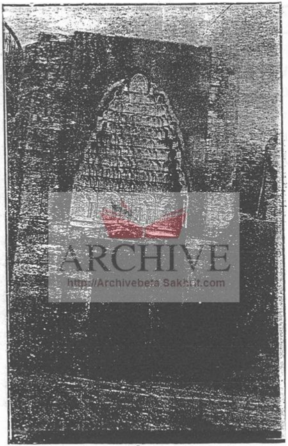

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

«البيمارستان النوري الكبير في دمشق»

أنشأه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي سنة ٥٦٠ هـ
وهو اليوم ميتم للاناث

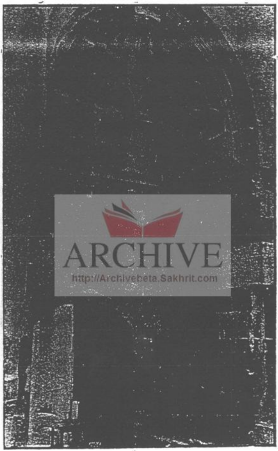

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

« البيمارستان القيمري في دمشق »
أنشأه الأمير سيف الدين قيمر سنة ٦٤٣ هـ في سفح جبل الصالحية
وهو اليوم حظيرة يأوي اليه الفقراء والمساكين

الجنون والمجانين في اوربة في القرون الوسطى — وبينا الطب النفسي يرفل في الممالك الاسلامية بابهى الحلل كانت اوربة تائهة في ليل من الأضاليل وقد شاع فيها الاعتقاد بالجنون الآلهي والشيطاني شأنه في القرون المتقدمة فراحت تجهل المصابين بالهذيان الديني وترمي بالكفر المبتلين بأنواع الهذيان المخالف للشرائع والمعتقدات فيحكم عليهم بالسجن والقتل أو يقذف بهم في أعماق آبار روما القديمة حيث يقضون نحبهم ضحية الجهل المطبق . ولم يكن القانون الروماني يستثني من العقاب سوى المصابين ببعض أنواع الجنون المطبق كالعته التام والبلاهة الشديدة . وقد كان هؤلاء المرضى غير المسؤولين يرسلون الى قرى وجزر غير آهلة ولا مثبتة تخصص لهم صيانة للناس من أذاهم ، والهولنديون هم اول من ابتدع هذه الطريقة في تجريد المجانين ، وقد كانت هذه القرى ذات أسوار ضخمة مرتفعة وفي داخلها غرفة ذات سلاسل وقيود يقيد بها المجانين المحتدون ويظلون فيها الى أن يقضوا نحبهم .

الجنون والمجانين في القرون الأخيرة — بقي علم الجنون حتى أواخر القرن الثامن عشر غريباً عن علم الطب كأنه لا يمتّ اليه بصلة . وظل العالم بأجمعه حتى أواخر القرن التاسع عشر ينظر الى المجنون نظره الى الحيوان المفترس فيعمل على غله وتجريده والحجر عليه ليأمن أذاه دون ان تأخذه به رأفة أو أن يفكر بمداواته وبرئه . وقد كان المجانين في جميع البلدان يساقون في الأسواق مغلولي الأيدي حفاة مكشوفي الرؤوس مطوقي الأعناق بسلاسل طويلة يقودهم بها السجانون ومن ورائهم الناس والأولاد يهزأون بهم ويسخرون منهم الى ان يبلغوا المكان المعد لهم وهو أشبه بسجن في باطنه حجيرات صغيرة ضيقة منخفضة السقف مظلمة لا ينفذ اليها النور الا من نافذة صغيرة في السقف أو في أعلى الجدار وقد سلحت جدرانها بالسلاسل والأغلال يقيد بها المجنون ويزج فيها على الأرض أو على مقعد خشبي حيث يقضي ليله ونهاره بعيداً عن النور والهواء في جوّ تتكاثف فيه العفونة والروائح المنتنة الكريهة الى ان تمد اليه الطبيعة يد الاحسان والشفقة فتتداركه باحد أمراضها القتالة وتريحه من مظالم أخيه الانسان .

ومن بواعث الأسى والأسف أن الناس كانوا حتى أوائل العصر الحاضر يؤمون هذه الملاجئ أو بالحري هذه المجازر لترويح النفس بمشاهدة اولئك الضعفاء الابرياء

فلا تعتريهم عندما يشاهدونهم يقاسون تلك الآلام شفقة ولا رأفة ، بل بالعكس كان منهم من يحاول إثارة غضب ذلك البائس بايذائه ليبادر اليه زبانية المحل بالسياط فيقهقه الناظرون لهذا المنظر الوحشي كأنهم ليسوا من طينة هؤلاء التعساء . ولا غرو فقد خلق الانسان ظلوماً .

ومما تقدم ذكره يتبين لنا ان مدنية القرون الاخيرة انحصرت في تجريد المجنون عن الهيأة الاجتماعية للتملص من أذاه دون ان تمد اليه يد الاسعاف ودون ان تلحظه عين العلم بطرف ، وفي ذلك لعمري منتهى الانانية والظلم .

الجنون والمجانين في القرن التاسع عشر والعشرين — هكذا بقي الجنون يُعد حالة لا صلة للعلم بها والمجنون حيواناً لا يمتّ الى البشرية بأصل الى سنة ١٧٩٣ حيث قيض الله له رسولاً من الرحمة حطم بجهاده العلمي سلاسله وقيوده ونهض به من درجة الحيوان الى مكانة الانسان المريض وذلك المصلح المجدد الكبير هو الدكتور بينل الذي تخلد له الانسانية في صدرها ذكراً مشفوعاً بالحرمة والثناء .

عهدت حكومة الشعب الفرنسية ايها السادة الى بينل (Pinel) سنة ١٧٩٣ بادارة مستشفى بيستر (Bisêtre) فشق عليه مارآه فيه من حالة المجانين التي اتينا على وصفها . فآلى على نفسه ان يعمل على انقاذهم من هذه المجازر التي يحمر منها وجه الانسانية خجلاً فتقرب الى الحكومة بطلب حل قيود المجانين ومعاملتهم باللين والحسنى فهزأت بكلامه مراراً ثم اجابته الى طلبه بعد ان اخذ على نفسه تبعة هذا العمل وبرهن فعلاً على ان اطلاق المجانين ينقص من هياجهم ويساعد على برئهم . فدخل الطب النفسي من هذا العهد في دور رقي جديد وقد عم هذا الاصلاح انكلترا والمانيا وايطاليا وسائر الممالك الاوربية الراقية . فسادت فيها فكرة الانسانية وبدئ بقلب تلك السجون الدامية الى دور تمريض يلقى فيها المجنون مايلقاه المريض من العناية والمعالجة والنظافة والغذاء والدرس الطبي والمشاهدة .

ومنعاً لاساءة التصرف بالحجر على الناس المصابين بالآفات العقلية اصدرت الحكومة الفرنسية قانون ٣٠ حزيران سنة ١٨٣٨ المتعلق بنظام المؤسسات الصحية المخصصة للمجانين . ولم يزل هذا القانون معمولاً به حتى اليوم . وفي جميع الممالك الاوربية بفروق قليلة . وعلى الرغم من ان هدف هذا القانون اجتماعي غير طبي فان وضع المجانين في دور خاصة تتوفر فيها

اسباب الخدمة والتمريض وحسن الادارة فسح للاطباء مجالاً لدرس اولئك المرضى ومشاهدتهم مما عاد على الطب وعلى الانسانية بالنفع الكبير لان الجنون الذي لم يكن يعرف من حقائقه الا القليل بدأ يتضح رويداً رويداً ويدخل في نهج علمي صحيح ٠

ففي سنة ١٨٢٢ ميز بيل (Bayle) الخبل العام (Paralysie generale) ووصف لاسيك (Lasèque) سنة ١٨٥٢ هذيان الاضطهاد وجدد مارك وفورده طب المجانين الشرعي وفي سنة ١٨٥٤ وصف فالرت (Falret) وبيارجر (Baillarger) الجنة المتناوبة ثم جاءت اعمال مول ولفرن وكوتار وشاركو وغيرهم من الاساتذة المشهورين وكلها ترمي الى تصنيف امراض النفس وتمييز كل منها عن الآخر ٠ اما المداواة فقد قامت في وجهها عقبات جمة اهمها الاعتقاد باستحالة شفاء المجنون وعدم امكان مداواته وقد ابلى مانيان (Magnan) في مقاومة هذه الفكرة بلاءاً حسنا ونهج في استقرائه العلمي طرق التشريح والتجربة متوخياً التوفيق ما بين الفسيولوجيا والسريريات ٠ فهداه عمله هذا الى اكتشاف اسباب كثير من الحالات النفسية الجنونية وذلك ان هذه الحالات تنشأ في الغالب عن اختلالات الجسم العضوية الناشئة عن المسكرات والسموم والعفونة وعدم كفاية الاعضاء الباطنية وغير ذلك مما يجعل ما بين امراض الجسم والآفات النفسية علاقة قوية ٠ وبفتح في وجه الامراض النفسية طرقاً جديدة للمداواة والوقاية ٠

هنا دخل طب النفس في عهد جديد ٠ فانه لم يقف عند عد المجنون مريضاً عادياً يعنى بمداواته مدة مرضه بل تجاوز هذا الحد الى القول بوجوب الاسراع بتشخيص الداء في بدء حدوثه ومكافحته كما تكافح سائر الامراض بطرق التحفظ والوقاية والمداواة العاجلة ٠ وذلك لان المشاهدات الطبية اثبتت ان كثيراً من الامراض النفسية تشفى بسهولة اذا عولجت في بدء نشوئها كما ان الاحصاآت دلت على ان في ١٠٠ حادثة شفاء يوجد سبعون ممن عولجوا في السنة الاولى والثانية و٣ – ٤ ممن عولجوا في السنة الثالثة ٠ وخير دليل ناطق على علاقة امراض الجسم بآفات النفس وامكان مداواتها والوقاية منها : الزهري اي الافرنجي فهو مرض وبيل تنشأ عنه امراض عصبية ودماغية عضالة تشفى بالمداواة العاجلة ٠ كما انه من الممكن منع حدوثها بمداواة هذا المرض في بدء ظهوره ٠

وهكذا يقال في المسكرات الغولية وغيرها فان ادمانها يفسد الكبد ويضعف

الاعصاب ، فتقف الخلايا الكبدية دون ايفاء وظيفتها فتتسمم الخلايا الدماغية وتصبح مريضة ينشا عنها الاختلال العقلي والخلقي ، فاذا فطم السكير عن المسكر وأصلحت كبده بالأدوية الخاصة يقل تجمع السم في دمه فتصلح حاله النفسية . وهكذا الحال مع غير المسكرات من السموم ، ومع الامراض العفنية واختلال الافرازات الغدية وغيرها مما يسبب ضعف الخلايا الدماغية ويحدث فساداً في الافعال العقلية وفي العاطفية والانفعال، فيدعى صاحبها مجنوناً بينما هو مريض وكان بالامكان وقايته من هذه الامراض الجنونية بمداواة سببها كما انه في الامكان شفاؤه منها اذا اكتشف الطبيب السبب وعالجه قبل ان يتأصل الداء في جسمه .

ومما تقدم ذكره يتضح لنا أيها السادة ان كثيراً من الأمراض النفسية التي كان الطب القديم يحكم بعدم شفائها تشفى اليوم بفضل الرقي العلمي الحديث وهي تكافح وتتقى كما تكافح سائر الأمراض الجسمية .

على ان الوقاية النفسية قد خطت اليوم خطوة كبرى تعد على حداثة عهدها من مفاخر هذا العصر ومبتدعاته وبذلك بفضل جهود احد المحسنين الامير كيين كليفور ويليام بير (Clifford W. Beers) الملقب بمثل اميركا . وذلك ان هذا الرجل المحسن الكبير كان أصيب باختلال عقلي من جراء مرض الوافدة ، وحجر عليه من سنة ١٩٠٠ الى ١٩٠٣ ، فلما شفي وخرج من المستشفى أخذ على نفسه ان يعمل على وقاية بني جنسه من الاختلالات النفسية ويسعى لحسن مداواتها ، فأسس سنة ١٩٠٨ في نيويورك جمعية حفظ صحة النفس وتطوع للتبشير بها ، فانتشرت فكرته هذه في جميع العالم المتمدن ، فتأسست في سويسرة وفرنسة سنة ١٩٢٠ وفي بولونيا سنة ١٩٢١ وفي البرازيل سنة ١٩٢٣ وفي بيرو والمجر وتشكوسلوفاكيا وبولونيا سنة ١٩٢٤ مؤسسات كبيرة لحفظ صحة النفس .

وقد كانت الحرب العالمية الاخيرة العامل الاكبر في توجيه أبصار العالم المتمدن الى أهمية الوقاية النفسية ووجوب الاعتناء بصحة عقلية الفرد التي تتوقف عليها حياة المجموع وسلامته . فقد كان يوجد وراء كل جيش من جيوش الامم المحاربة العظمى هيأة صحية عملها فحص نفسية الضباط والافراد ، ومستشفيات خاصة لمداواة الآفات النفسية في

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

خطوط القتال . قال الدكتور بترتريسكا في كتابه الوقاية النفسية : ان (٦٨٠٠٠٠) جندي أخرجوا من الجيش الاميركي وأعيدوا لبلادهم لاكتشاف آفات نفسية في جسومهم وانه بفضل هذا الانتقاء كانت صحة الجيش الاميركي النفسية جيدة مسرة ، فقد بلغ عدد حوادث الانتحار والجنايات فيه (١٢٠) حادثة انتحار و (١٧٣١) جنحة وجناية بينما كان عدد حوادث الانتحار فيه قبل الحرب (١١٧٠) حادثة و (٢٥٠٠٠) حادثة جنحة وجناية . وختم هذا البحث بقوله ان تجربة الحرب أثبتت أهمية العنصر النفسي في صحة المجتمع .

وقال الدكتور تولوز مؤسس الوقاية النفسية في فرنسة : « تتألف مقومات الفاعلية الاجتماعية الاساسية من نفسية الافراد ، فان مرض عضو واحد من أعضاء الفرد لا يمنعه من القيام بعمل صناعي صحيح ، بينما أخف الحالات النفسية السيئة تؤدي الى نقص الفاعلية المنتجة أو بطلانها ، فسلامة النفس والحالة هذه هي في الدرجة الاولى من الاهمية فيما يتعلق بانتاج الفرد الذي هو العنصر الذي تتألف منه حياة الامة السعيدة ، فمن الواجب على فرنسة التي نهكتها الحرب وأفقرتها ان تستجمع كل قواها لاعادة بنيان ثروتها من القدرة النفسية . »

واليكم خلاصة نظام اتحاد وقاية النفس الافرنسي المطبق اليوم :

(١) تهذيب الشعب وتعليمه ليدفع عن نفسه الامراض النفسية كما يتقي مرض السل وذلك بواسطة التبشير والصحف والدعاية لترك المسكرات واجتناب دور الفحش والميسر .

(٢) تأمين كشف المرض النفسي ومداواته في بدئه وذلك بفتح مستوصفات خاصة بالآفات النفسية يقوم بمهامها أخصائيون وممرضات سيارات .

(٣) وقاية الطلاب والصناع من الآفات النفسية بدرس درجة تحمل قواهم العقلية وتعيين الصناعة التي تتفق مع مداركهم .

ومن هذا النظام يتضح لنا ان جمعيات حفظ صحة النفس لم تقف عند حد مداواة الامراض النفسية والوقاية منها بل تعدتها الى هدف أسمى ، فهي تدرس قابلية الاشخاص والطلاب العلمية والعملية وهم في مدارسهم وتوجه كلاً منهم الى العلم أو الصناعة التي تلتئم مع مواهبه ، فيستثمر العلم والصناعة من قواه الحد الاقصى ، وفي هذا منتهى الرقي والتقدم .

ومن هذه الخلاصة التاريخية أيها السادة يتبين لنا ان علم الامراض النفسية ولا نسميها

تعد اليوم بالجنون لما تلوثت به هذه الكلمة من أدران الجهل والظلم والوحشية في العصور الماضية — قد تطور تطوراً سريعاً في هذه السنين الاخيرة من أساطير خرافية – الى علم طبي — الى فن مداواة ووقاية — الى علم اجتماعي ترتكز عليه سعادة الامم ورقيها ، وان المنفوس أي المصاب بآفة نفسية ولا نسميه بعد اليوم مجنوناً لما تدنست به هذه الكلمة من من الحقـارة وعدم الدلالة على المعنى العلمي — قد ارتقى من سليب آلهة أو ملبوس شياطين الى أثيم شرير يسجن أو يحرق أو يصلب — الى حيوان مفترس يكبل بالسلاسل والاغلال — الى بريء يستحق الرأفة والاحسان — الى مريض معصوم ينتقل ما بين سرير المستشفى وردهات المصح حيث النور والهواء الطلق والحدائق والمطاعم والمشاغل مما يعد من مفـاخر هذا العصر ، وهو يؤيد ماقدمته في بدء هذه المحاضرة : إن أرقى عصور البشرية طراً هي التي عرفت فيها ماهية الجنون وأبهى أيام البشرية حضارة هي التي عومل فيهـا المجنون معاملة المرضى بالرأفة والشفقة والاحسان .

الدكتور اسعد الحكيم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

محاضرات

— في —

﴿ تاريخ آداب العرب ﴾

— «۱» —

١ — ماهو الادب · ماتاريخه ، من هم العرب · ما أصلهم · واين منبتهم · لِمَ سموا عرباً · طبقاتهم ·امهات قبائلهم · العرب والأعراب · جزيرة العرب · حدودها · واقسامها قديماً وحديثاً ··· الخ · أبحاث كثر ترددها في صدور المؤلفات الموضوعة في هذا الشأن · واحتلت من مقدماتها مكاناً فسيحاً ليس من حقها ان تحتله ، حتى أصبح الشداة من خريجي الثانويات يسأمون حشوها في آذانهم وحشدها في أذهانهم ·

اذا أضفنا هذا الى ماقل الساعات المرصدة لهذا العلم في هذا المعهد من القلة ، تجدنا جد معذورين في ان نصدف عن هذه الأبحاث وما على شاكلتها مما ليس من الموضوع في العمود ، وان نمد يدنا الى المقصود من أقرب نواحيه ، من غير ما حاجة الى ركوب الصعب والذلول من المقدمات الطويلة ·

٢ — يرد العلماء اليوم اللغات البشرية الى ثلاثة أصول : السامي · والآريـ · والطوراني · ويعدون العربية من الأصل السامي · واذا اعتبرنا اللغة البابلية الاولى التي عُثِر على بقيتها في آثار الدولة الحمورية — هي الأصل السامي الذي انشقت منه اللغات المنسوبة اليه ، يترجح عندئذ أن العربية أقرب أخواتها الى ذلك الأصل ، او انها هي الاصل نفسه ، تقلبت في اطوار ، وتنقلت في احوال ، وحدثتها القرون الخالية بالصقال · حتى وصلت

---

(١) دروس الاستاذ طه بك الراوي عضو المجمع العلمي العربي واستاذ التفسير في جامعة آل البيت سابقاً والآداب العربية في دار المعلمين اليوم ·

الى ما وصلت اليه الآن . ذلك لأن العلماء رأوا مشابهة واضحة بين العربية الحاضرة والبابلية الاولى . ووجدوا في هذه كلمات ، وعلامات ، واصولاً ، وقواعد ، هي نفسها موجودة في العربية مع خلو سائر اخواتها السامية منها . أو هي موجودة فيها مع تحريف وتحوير ، ليسا بالبعيدين .

فمن وجوه المشابهة بين العربية المضرية والبابلية ، حركات الاعراب ، فانها في البابلية كما هي في العربية . ولا أثر لها في سائر اللغات السامية . ومن هنا يظهر ان الاعراب عريق في العربية عرفها وعرفته قبل أن يعرفها التاريخ . ومن وجوه المشابهة علامة الجمع السالم فانها في اللغتين (و ن) . وصيغ الافعال في اللغتين متقاربة جداً . والتنوين في البابلية ميم ساكنة . والميم اخت النون في العربية . وكثيراً ما تتبادلان مثل (عنبر) تنطق (عمبر) ومن امثلة الكلمات التي جاءت في اللغتين معاً من غير ما تحريف : أنف ، عنب ، بلال ، صعصعة ، نسر ، شمس . الى غيرها من الكلمات التي لا تختلف شيئاً في اللغتين .

اذا أضفنا هذا الى ما يراه المحققون من أن مهد العنصر السامي جزيرة العرب ، يتبين لنا جلياً صدق ما ذهبنا اليه من ان اللغة العربية هي العمود الذي انشعبت منه سائر اللغات السامية . او لا أقل من أنها أقرب اخواتها كلها الى الأصل الاول المندثر على تقدير وجوده . والعلماء يعللون ذلك بكون العربية المضرية عاشت في معظم عصورها متبدية ، والبداوة حرز حريز لما تحوطه بعنايتها وتربيه في حجرها من اللغات ، إذ من البديهي أن اللغة تتلون بتلون العمران . وتصطبغ بصبغة الحضارة التي تعيش في اكنافها . وأين العمران والحضارة من المهامه الفيح ، والصحارى التي تحار فيها الريح !! .

٣ — ليس معنى كون العربية أصلاً . أو قريبة من الاصل أن هذه اللغة المضرية اليعربية التي تحوكها اقلامنا ، وتلوكها افواهنا ، هي تلك الام القديمة على ما كانت عليه في مهد حياتها . حفظتها لنا القرون الخالية ، فأدتها الينا مصونة من التحوير والتغيير . لا . وانما المقصود ان الشعب العربي الذي مازال ولم يزل يحتفظ بجزيرته ، مهد العنصر السامي . احتفظ بأم لغات هذا العنصر . وان تلك الام تطورت من حال الى حال ، وتعهدتها الاجيال بالصقال ، ولم تزل تتنازعها عوامل البسط والقبض ، والرفع والخفض ، الى ان تناولتها يد النهضة الاسلامية . فجمعت شملها ، ولمت شعثها ، وزادت في ثرائها ، وبالغت

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

في نمائها ، ثم وطدت قواعدها ، وضبطت اصولها وفروعها ، واحاطتها بعظيم رعايتها وشملتها بجليل حمايتها ، الى ان بلغت مابلغت من البسطة في السلطان ، والكثرة في الاعوان . واتسع صدرها للعلوم المختلفة من بين شرعيـة ولسانية ، وفلسفية ، وغيرها ، وبلغت يوم ذاك شأواً قصياً لم تصل اليه لغة من لغات العالم التي كانت تعاصرها .

فاذا انت القيت نظرة اليها وهي زاخرة بالعلوم والفنون في العصر العباسي تجدها اوسع رقعة منها في العصر الاموي . وهي في العصر الاموي ، وصدر الاسلام ، أفسح مجالاً منها في الجاهلية يوم كانت منعزلة في زوايا الجزيرة . وقس على ذلك حالها في الجاهلية الآخرة بالنسبة الى حالها في الجاهلة الاولى .

وبالجملة فان اللغة تنبسط بانبساط اهلها في الحضارة والعمران ، وتنقبض بانقباضهم . وترتقي بارتقائهم ، وتنخفض بانخفاضهم . وهي — بعد — كائن حي معروض لعوامل التركيب والتحليل . والتجدد والدثور . وسائر العوامل التي تخضع لها الاحياء من هـذا القبيل . واهم علائم الحياة في اللغة نشاط عاملي التجدد والدثور في بنيتها كالانسان في عنفوان شبابه . فتستغني عن الفاظ وتراكيب ، وتضم الى نفسها الفاظاً وتراكيب ، حسبما تقتضي به عوامل النشوء والارتقاء ، او كما يقولون : حسبما يتطلبه قانون الانتخاب الطبيعي . ومن هذا نعلم ان لغة العرب اليوم تختلف عنها بالامس .

٤ — وليس في مقدور الباحث اليوم ان يحيط علماً بكل ماتقلبت عليه هذه اللغـة من أطوار التهذيب ، وماصرت به من عوامل النماء ، والتوسيع . ولكن يمكن ان يقال على سبيل الاجمال أن أطوار تهذيبها وعوامل نمائها وتوسيعها ، تابعة لتطور أحوال المتكلمين بها . فاذا علمنا — مثلاً — ان دولة حمورابي التي وصلت الى ماوصلت اليه من رفعة الشأن ، والتبسط في العمران — عربية النجار ، نعلم عند ذاك ان هذه اللغة نالت على عهد هذه الدولة قسطها من التهذيب والنماء يقدّران بمقدار ما أحرزته تلك الدولة من سعة العمران ، وقوة السلطان . ويقال مثل ذلك في الدول العربية الاخرى ، التي ظهرت لمع من اخبارها من خلال غبار العصور الخالية ، مثل دولة العماليق في مصر المعروفة عند اليونان بأسم (الهيكسوس) . ومثل دولة معين في اليمن ، وسائر الدول اليانية التي تبسطت في الفتوح، وتوسعت في الحضارة .

ومن هذا يتبين ان معرفة اطوار التهذيب لهذه اللغة تستمد من تاريخ الامة العربية فلنترك هذا الجانب للباحث في تاريخ العرب • على انه لايفوتنا ان اطوار التهذيب ليست قاصرة على ماتتقلب عليه الامة من الاحوال السياسية • بل هناك تطورات لها شأنها خارجة عن هذه • منها : اتصال العرب بغيرهم بالمجاورة ، والمتاجرة ، وما الى ذلك • ومنها انتشار القبائل في انحاء الجزيرة ، وانفراد كل قبيل بمحاسن من القول يغبطه عليها القبيل الآخر • ومنها الأسواق المشهورة ، والمجامع المذكورة • مثل عكاظ • ومجنة • وذي المجاز • ومنها ، الحج • وغير ذلك من المجتمعات •

هذا أمر تطورها في الجاهلية وأما في الاسلام فلأطوار التهذيب تاريخ واضح المنهج • سنلم به في غير هذا الموطن ان شاء الله تعالى •

٥ — أما عوامل النماء في اللغة فكثيرة أهمها : الاشتقاق ، والنحت ، والقلب ، والابدال ، والاشتراك ، والتضاد ، والترادف ، والمجاز ، والكناية ، والاصطلاح ، والتوليد ، والتعريب •••

واذا أنعمت النظر في هذه العوامل تجدها على قسمين : قسم منها يرجع الى بنية اللغة مثل الاشتقاق • وقسم تستمده اللغة من الخارج مثل التعريب • وهذا أشبه شئ بكيفية نماء الاجسام الحية • فان وسائل نمائها على درجتين : الاولى تمثيل الأغذية التي تستمدها من الخارج • والثانية تحصل بتكاثر الخليات بانقسام الواحدة منها الى اثنتين • ثم انقسام كل من الاثنتين وهكذا •••

١ — الاشتقاق :

يقول الصرفيون : ان الاشتقاق أخذ صيغة من أخرى مع اتفاقها في أصل المادة والمعنى ، ليدل بالثانية على المعنى الاصلي ، مع زيادة مفيدة ، لاجلها اختلفت حروفها ، أو حركاتها أو هما معاً ، مثل كتب من الكتابة ، وقرأ من القراءة • وبعبارة أخرى : هو رد لفظ الى آخر لمناسبة بينهما في المعنى والحروف الاصلية •

وقد ذكروا له نوعين : الاول الاشتقاق الأصغر وهو المشهور بين علماء العربية • واذا أطلق الاشتقاق ينصرف اليه • والثاني الاشتقاق الاكبر • وأهم مميزاته عن سابقه انه لايشترط فيه الترتيب في الحروف بين المشتق والمشتق منه •

والمذهب المعول عليه بين علماء العربيــة ان الكلم بعضه مشتق وبعضه غير مشتق ، وذهبت طائفة من المتأخرين الى ان الكلم كله مشتق . وهذا مذهب غير مفهوم لانه لو كانت كل لفظة فرعاً من غيرها للزم الا يكون هناك أصل ، وهذا محال . اللهم الا اذا قالوا : ان المراد بذلك ان الكلمة لاتخلو من احد أمرين : اما ان تكون مشتقة أو مشتقاً منها . فحينئذ يمكن ان يذكر قولهم هذا مع الأقوال . ويحتمل المناقشة والجدال ، وتذهب طائفة ثالثة الى انه ليس هناك اشتقاق ما وان الألفاظ كلهـا أصل ، وهو قول بعيد عن التحقيق .

ثم ان التغييرات بين المشتق والمشتق منه في الاشتقاق الأصغر تنحصر في وجوه : الاول — زيادة حركة في المشتق مثل (عَلِم) من (العِلْم) . الثاني — زيادة حرف فيه مثل (طالب) من (الطلب) . الثالث — زيادة حركة وحرف معاً مثل (ضارب) من (الضرب) . الرابع — نقص حركة منه (كالفرس) من (الفرس) . الخامس — نقص حرف منه مثل (ثبت) من (الثبات) . السادس — نقص حركة وحرف معاً مثل (نزا) من (النزوان) . السابع — نقص حركة وزيادة حرف مثل (غضبى) من (الغضب) . الثامن — زيادة حركة ونقص حرف مثل (حَرِم) من (الحرمان) . التاسع — زيادة حركة وحرف ونقصها مثل (استنوق) من (الناقة) . العاشر — تغاير الحركتين مثل (بَطِر) من(البطر). الحادي عشر — نقص حركة وزيادة أخرى وحرف ، مثل (اضرب) من (الضرب) . الثاني عشر — نقص حرف وزيادة آخر ، مثل (راضع) من (الرضاعة). الثالث عشر — نقص حرف وزيادة آخر وحركة ، مثل (خاف) من (الخوف) . الرابع عشر — نقص حركة وحرف وزيادة حركة فقط ، مثل (عِدْ) من(الوعد) فان فيه نقص الواو وحركتها وكسر العين بعد ان كانت ساكنة . الخامس عشر — نقص حركة وحرف وزيادة حرف ، مثل (فاخر) من (الفخار) .

وانما أشرنا الى هذه التغيرات المتنوعة لتدل على مافي هذا الباب من السعة ، وانه من أكبر الأبواب التي تنهض باللغة وتمدها بمعين لا ينضب .

اما الاشتقاق الاكبر فيشترط فيه حفظ أصل المادة دون تقلبات الهيئة ، مثل تقليب مادة (ق و ل) على وجوهها الستة المحتملة : ولق . لقو . . . الخ وهي في كل هذه التصاريف

تدل على الخفة والسرعة . قال ابوحيان النحوي : وهذا مما ابتدعه الامام ابوالفتح بن جني . وكان شيخه ابوعلي الفارسي يأنس به في بعض المواضع .

والذي يتقرى كل اللغة العربية بانعام نظر ، يجد ان لمعظم موادها اصلاً يرجع اليه كثير من كلماته ان لم نقل كلها ، خذ على ذلك مادة (ف ل) وما يثلثهما تجد الجميع تدور حول معنى الشق والفتح . مثل : فلح ، فلج ، فلع ، فلق ، فلذ ، فلي . ومثل ذلك مادة (ق ط) وما يثلثهما تقول : قط ، قطع ، قطر ، قطف ، قطن . . . الخ وكلها بمعنى الانفصال .

وأول من فتح باب هذا النوع من الاشتقاق ابو الفتح ايضاً ، وللعلامة الزمخشري ولوع فيه ، تجد ذلك كثيراً في كشافه ، وبذهب بعض اللغويين الى أن هذا الأصل جارٍ في كل تراكيب المواد اللغوية ولو بضرب من التأويل الا قليلاً . وهذا مذهب لايخلو من المبالغة ، اذ ان كثيراً من مفردات اللغة دخل عليها من لغات أخرى ثم صار مع الزمان كأنه منها في الصميم . ولايمكن في حال من الأحوال ان يرد الى أصل من أصولها . وللغفلة عن هذه الناحية تجد الكثير من اللغويين يتمحلون لبعض الكلمات اشتقاقات أقل مايقال فيها انها من المضحكات . حكي عن بعضهم انه سئل عن اشتقاق الجرجير — نوع من النبات — فقال : سمي بذلك لان الريح تجرجره اي تجره . وسئل عن اشتقاق الجرة ، فقال : لانها تجر على الارض . ويقول انما سمي الثور ثوراً لانه يثير الارض للحرث ، الى أمثال هذا الهذيان والأعجب ان بعضهم يتكلف للأعلام العجمية ضروباً من الاشتقاق تتقاطر السخافة من أطرافها . ولا نعدم في هذا العصر أناساً من هذا القبيل . فقد بلغني ان بعضهم سئل عن البنجرة — وهي كلمة يستعملها الأتراك للنافذة — فقال : انها من فنجر الرجل اذا فتح عينيه ، لان النافذة تكون مفتوحة ، فاقرأ واعجب .

ولمكانة هذا الباب في علم العربية أفردوه بالتأليف وأحاطوه بالعناية الواسعة ، وممن الف فيه الأصمعي ، ومحمدبن المستنير المعروف بقطرب ، وابوالحسن الأخفش ، وابونصر الباهلي ، والمفضل بن سلمة ، والمبرد ، وابن دريد ، والزجاج ، وابن السراج ، والرماني ، وابن النحاس ، وابن خالويه وغيرهم . هذا زيادة على ماجاء به الصرفيون في كتبهم من التحقيق والتمحيص . وأكبرهم عناية في ذلك امام الصرفيين وسندهم ابو الفتح بن جني

الموصلي . وقد ألف فيه بعض المعاصرين من أعلام الشام كتاباً نفيساً يعدُّ آية في بابه .
هذا وان العصر الذي نحن فيه يتطلب من هذا الباب فضل توسع ، وبذل عناية ، لأن المعاني الجديدة المتدفقة ، والمبدعات العصرية المتكاثرة ، تتطلب من الألفاظ ما تحيا به مفردات اللغة اذا لم تنزع الى هذا البـاب فتوسع منه ما ضيقه غلاة المحافظين ، ثم تستمد منه العون ، فتجد منه خير معين وأقوى نصير .

ثم ان هذا الباب أوسع من ان يحاط به في مثل هذه العجالة ، ولكنا نظرنا اليـه من بعض نواحيه التي تتعلق بموضوعنا وتركنا التفاصيل للكتب الموضوعة فيه .

٢ — النحت :

قد يعمد العربي الى كلمتين فأكثر ، فيقتطع منها حروفاً يؤلف منها كلمة جديدة يدل بها على مجموع المركب الذي اقتطعت منه ، أو على معنى آخر قريب من معنى ما اقتطعت منه ، فيقول في النسبة الى عبد شمس ، عبشمي — مثلاً — كما يقول : (بسمل) يريد انه قال : بسم الله الرحمن الرحيم ، ويسمون العجوز الصخابة الكثيرة المذر : صهصلق ، أخذاً من (صهل) ، و (صلق) ، بمعنى صات صوتاً شديداً .

وقد أطلق علماء العربية على هذا النوع من العمل اللغوي النحت ، لان العربي ينحت من الكلمتين كلمة ، وفي هذا العمل من الفوائد مافيه مما يرمي الى امداد اللغة بالثراء ، زيادة على مافيه من الاختصار بكون الكلمة الجديدة تدل على جملة من القول ، فقولنا: (بسمل) مثلاً أخصر بكثير من قولنا : قال بسم الله الرحمن الرحيم .

ولم يضع له الأوائل قواعد واضحة ، ولذلك اعتبره بعض النحاة سماعياً ، وقل الاعتماد عليه عند المتأخرين من العلماء ويظهر من كلام ابن مالك في تسهيله انه يعتبر هذا الباب قياسياً في باب النسبة ، ولكن ابا حيان أنكر عليه ذلك وقال ان هذا الحكم لا يطرد ، وانما يقال منه ماقالته العرب فقط والمحفوظ منه — عند أبي حيان — عبشمي ، في النسبة الى عبد شمس . وعبدري ، في عبد الدار . ومرقسي ، في امرىء القيس . وعبقسي ، في عبد القيس . وتيملي ، في تيم الله . هذا ما أورده ابو حيان من المسموع في باب النسبة من المنحوت . ومعلوم ان النحت في غير باب النسبة أكثر منه في بابها فقد قالوا حلل ، وأكثر من الحيلة ، اذا قال : لا آله الا الله ، وحولق ، وأكثر من الحولقة ، وحوقل

(انكر بعضهم ان يقال حوقل · وعده من الغلط وليس بشيء لانه جرى على ألسنة كبار اللغويين · ومن حفظ حجة على من لم يحفظ) واكثر من الحوقلة · اذا قال : لاحول ولا قوة الا بالله · ومنه حمدل حمدلة : قال : الحمد لله · وحسبل حسبلة ، قال : حسبي الله · وحيعل حيعلة قال : حي على الصلاة · حي على الفلاح · وحي على كذا · قال الشاعر :

اقول لها ودمع العين جار ألم يحزنك حيعلة المنادي

وجعفد جعفدة · قال : جعلت فداك · ودمعزة دمعزة قال : دام عزك وطلبق طلبقة · قال : أطال الله بقاك · ومشكن مشكنة · قال : ما شاء الله كان · وكبتع كبتعة · قال : كبت الله عدوك · وسمعل سمعلة · قال : السلام عليكم وقالوا : حبرم القدر اذا وضع فيها حب الرمان · وامثلة ذلك كثيرة · حتى ذهب ابن فارس وجماعة من المحققين الى ان الاسماء الزائدة على ثلاثة احرف اكثرها منحوت · مثل قول العرب : رجل (ضبطر) أي شديد · أو ضخم مكتنز اللحم منحوت من ضبط وضبر · بمعنى اشتد خلقه وتوثق · قال : ومنه اسد (صلدم) ورجل صلدم أي صلب · منحوت من · صلد وصدم · (وبعثر) منحوت من بعث واثير · (وبحثر) من بحث وأثار ·

ويرى الخليل ان النحت يجيء في الحروف · قال : اصل لن · (لاأن) فخففت فصارت لن وقد حدث لها بالتركيب معنى جديد في الجملة ···

وللنحت يد سموح في امداد اللغة بالثروة ، ولاسيما لغة العلم · ولكن بعض المتأخرين من النحويين · حالوا بين أهل العلم وبينه بقولهم انه باب سماعي ، وبذلك أوصدوه في وجوه القوم على حين الحاجة ماسة الى فتحه وتوسيعه بقدر المستطاع لمعالجة الفاقة اللغوية تجاه المعاني الحلية التي فاض فيضها وعب تيارها في هذا العصر ·

مالنا وللمتشددين من متأخري النحاة الذين كلما انفتح امام اللغة العربية باب تتنفس منه هرعوا اليه وسدوه على زعم انهم يخدمونها بالمحافظة عليها وسد مسالك العجمة عنها وماأشبه عملهم هذا بعمل تلك الصينية التي تضع قدميها في زوجي خف من الحديد للمحافظة على غضارتها وجمالها ، ولم تدر انها سوف يأتي عليها زمن تنقد فيه هاتان القدمان قوتهما وتعجزان عن القيام بوظائفهما ، وكذلك شأن اللغة عند هذا الفريق من القوم يوصدون عليها أبواب القياس ويأخذون عليها مجامع الطرق على زعم انهم يحرسونها ويحافظون على

ARCHIVE

نضارتها ويبقون على غضارتها ، وفاتهم انهم بهذا الصنيع يعملون على إماتتها بإماتة عناصر الحياة فيها ، وابعاد عوامل النماء عنها ، وانهم لا يزالون يضيقون عليها السبل حتى يقول المرجفون والذين في قلوبهم مرض انها أصيبت لغـة مصابة بفقر الدم ، وذبول الخليات ، ومنيت بسائر أعراض الهرم فصارت عاجزة عن ان تتسع صدرها للمعاني الجديدة المتكاثرة والعلوم العصرية المتدفقة بالمصطلحات وبذلك يسجلون عليهـا عجزها وهي غير عاجزة وفقرها وهي غير فقيرة ، وانما العجز في نفوس الذين يزعمون انهم قائمون على خدمتها ، وهم في وأدها مشتغلون ، والفقر في تفكيرهم ، ولكنهم لايعلمون .

٣ — القلب :

هو تقـديم بعض حروف الكلمة على بعض ، وبذلك تتولد كلمة جديدة تتفق مع أصلها في مادة الحروف وتختلف عنهـا في الترتيب مثل : صاعقة ، وصاقعة ، وخطيب مصقع ، ومصقع ، وبئس وأيس ، وعاث في الارض ، وعثا فيها ، وأنول ، وانوث ، ونزغ الشيطـان بينهم ، ونغز ، وهو يتسكع ويتكسع اذا تحير ، ومرزاب السطح ومزرابه ، وكلام وحشي ، وحوشي ، وهم الأوباش والأوشـاب ، اي الأخلاط من الناس .

وأمثلة هذا الباب كثيرة ذكر منهـا الجلال السيوطي في المزهر جملة صالحة ، وقد ألف فيه ابن السكيت كتاباً خاصاً ، وعقـد له ابن دريد في جمهرته باباً على حدته ، وكذلك فعل ابو عبيد في كتاب الغريب المصنف .

وليس في هذا الباب كبير فائدة من حيث الثروة اللغوية الا من ناحية الالفاظ ، اما المعاني فانها لا تتكثر به ، اذ المقلوب والمقلوب عنه يدلان على معنى واحد ، فان جذب وجبذ ، يدلان على معنى واحد وان تعددا لفظاً .

ويذهب البصريون من النحويين الى ان معظم ما يسميه اللغويون قلباً ليس به ، وانما هو من باب تعدد اللغات . فجبذ عندهم — مثلاً — لغة قبيلة وجذب لغة قبيلة أخرى . وعلى هذا يكون الكثير مما يظنون ان القلب قـد دخله ليس بذلك . ولا يتحقق القلب عند هؤلاء الا اذا تم لاحدى اللفظتين من التصاريف مالم يتم للأخرى ، فعندئذ يعتبرون اللفظة ذات التصريف التام أصلاً وذات التصريف الناقص فرعاً ، مثل بئس وأيس فانهم

لما وجدوا للاولى منهما مصدراً وهو اليأس ، ولم يجدوه للثانيــة ، قالوا ان الاولى أصل والثانية فرع ، وليس هناك فائدة مهمة من وراء هذا الخلاف الأ من وجهة واحدة وهي انه : هل كانت القبيلة الواحدة من العرب تستعمل اللفظين معاً ، أو كانت تستعمل لفظاً واحداً منهما . واللفظ الثاني تستعمله قبيلة أخرى ، سيأتي في باب المترادف مايلقي شيئاً من النور على هذه المسألة لان اللفظين في هذا الباب لايخرجان عن كونهما مترادفين ، سواء قلنا بالقلب أو بتعداد اللغات .

٤ — الابدال :

عرفنا ان القلب نقل حرف من موضعه الى موضع آخر من الكلمة نفسها فتولد من ذلك كلمة جديدة ، وبعبارة أخرى تصير الكلمة الواحدة كلمتين .

اما الابدال فهو ان ترفع حرفاً وتضع غيره موضعــه ، فتتولد من ذلك كلمة أخرى تدل على عين ماتدل عليه الاولى من المعنى ، فهو أخو القلب من ناحية أثره في الثروة اللفظية للغة دون المعنوية منها .

وقد اختلفوا فيه كما اختلفوا في القلب فقال فريق المبدل والمبدل منه يقعان في لغة القبيــلة الواحدة ، فالقبيلة التي تقول (صراط) مثلاً هي نفسها التي تقول (سراط) ، ويذهب المحققون الى ان العرب لاتتعمد تعويض حرف من حرف ، وانما هي لغات مختلفة لفظاً ، لقبائل مختلفة ، تدل على معاني متفقة ، بان تتقارب اللفظتان في لغتين لمعنى واحد حتى انهما لايختلفان الا في حرف واحد ، وعلى هذا لاتتكلم القبيلة الواحدة بكلمة (صراط) — مثلاً — طوراً بالصاد وطوراً بالسين ، انما يقول هذا قوم وذاك قوم آخرون .

ومن أمثلة هذا الباب ، قولهم : ضربة لازب ، ولازم ، وتلدم ، وتلعذم ، والقطر ، والقتر ، للناحية . وجمعها أقطار وأقتار . والحثالة ، والحتالة ، الرديء من كل شيء . والثوم ، والفوم ، وهو الحنطة . واللثام ، واللفام . وبعثر ، وبحثر ، ومدّ الحرف ، ومطّه . والثرى ، والبرى ...الخ .

والأمثلة كثيرة تكاد تفوت الحصر ، حتى قال بعض المحققين قلما تجــد حرفاً الا وقد جاء فيه البدل ولو نادراً ، يريد به البدل ، السماعي . اما ما يذكره الصرفيون من ان حروف الابدال تسعة (ءات د ط م هـ و ي) فانهم يريدون به الابدال القياسي وهو

مفصل في كتبهم وليس من موضوعنا الإفاضة فيه . وللابدال السماعي دواع كثيرة . منها : سهولة النطق باحد الحرفين المبدل أو المبدل منه . ومنها — وهو أهمها — البيئة فان لها الأثر البين في تنشئة الألسن ولهذا نجد القبائل اليمانية مثلاً تختلف في كثير من الألفاظ عن القبائل الحجازية ، فان هؤلاء ينطقون السين صيناً فيقولون الناس مثلاً ، واولئك يقلبونها تاء فيقولون النات ، وهؤلاء يقولون : لبيك وسعديك — مثلاً — واولئك يقولون : لبيش وسعديش ، بقلب الكاف شيناً ، وهي شنشنتهم .

وسنعرض لهذا البحث في باب اختلاف لغات القبائل ونمحه فضل ايضاح ان شاء الله تعالى .

« للبحث صلة »

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

رحلة اوليا جلبي

«في البلاد العربية»

- ٩ -

ومن يقصد قصر ابن وردان عن طريق الحمراء يغادر سلمية نحو الشمال فيرى على يساره ضريح الشيخ فرج الذي تقدم ذكره ومرجاً فيح يدعى مرج الخصيبة كان ولايزال منزل اعراب هذه الديار كما ان بعض الملوك والامراء الذين كانوا يأتون للاستيلاء على سلمية او حماة ينزلون بجيوشهم فيه · منهم سيف الدولة بن حمدان في سنة ٣٤٤ لما جاء وحارب الأعراب الذين ثاروا عليه كما قدمنا والملك المعظم عيسى بن العادل بن ايوب ملك دمشق لما جاء في سنة ٦٢١ لمحاصرة ابن أخته الملك الناصر ملك حماة ، ثم اخوه الملك الكامل ملك مصر لما جاء في سنة ٦٢٦ لمحاصرة الملك الناصر المذكور ايضاً ، ثم تيمورلنك طاغية التتر في سنة ٨٠٣ جاء الى هنا بعد ان خرب حلب وبعث بفرقة من جيشه لتخريب حماة وقلعتها ثم قصد دمشق · ويرى السائر قربة تل اعدا وكانت مقر الامير مهنا بن عيسى الذي تقدم ذكره وفي شرقيها ذيل العجل وفي شماليها تل سنان واهل هذه القرى الثلاث في يومنا شراكس · وفي غربي تل اعدا بطيحة صغيرة يحصل فيها ملح ناصع البياض لولا انه قليل المرارة ينشأ من توافد مياه القنى وسيول القرى المجاورة في الشرق والشمال في فصل الشتاء واجتماعها في هذه البطيحة التي في قعرها معدن الملح · ويقدرون كمية ما يمكن ان يجنى منها في السنة بخمسة آلاف قنطار لولا ان الحكومة مانعة ذلك منعاً باتاً وقاية لملح الجبول · فيقوم بهذا المنع حراس مدة فصل الصيف الى ان تندالسيول المذكورة وتذيبه وتحمله اذا فاضت الى مرج الخصيبة فعين الزرقاء فالأودية الذاهبة الى العاصي · هذا

ويرى السائر على يمينه من الضياع جمصين والبويض واللالا والريحة وعلى يساره الدوسة وخنيس والشهيب والشهبا والرُحيّة ٠ وفي شمالي الرحية هضبة عالية فوقها قلعة قديمة خراب تدعى « قلعة الرحية » لعلها من الحصون التي شيدها الرومان على طرف البرية لمنع البادية من العيث ٠ يصل اليها الصاعد من طريق في غربيها فيرى بابها الذي لم يبق منه سوى عضادتيه وعتبته ٠ وفناء هذه القلعة رحب لا يقل عن نصف هكتار كان حوله سور ضخم بقيت منه أسسه وفي وسطه أطلال دارسة وأحجار وأعمدة مبعثرة وكلها من الحجارة السوداء وبئر ذات فوهة واسعة مردومة على ان العمق الظاهر منها الآن لا يقل عن الخمسين متراً ٠

وبعد خمسة كيلومترات من هذه القلعة يصل السائر الى ثكنة الحمراء الخراب وهي من عهد السلطان عبد الحميد أقام فيها جنوداً يربون المهار المعدة لفرسان الجيش في المرج الافيح الذي في غربي الثكنة ويحفظون هذه البراري والضياع القائمة فيها وكلها كانت من أملاك هذا السلطان الخاصة ، ثم انتقلت بعد خلعه في سنة ١٣٢٧ الى بيت مال الدولة العثمانية وبعد انزالت هذه الدولة عقيب الحرب العامة في سنة ١٣٣٧ انتقلت الى بيت مال دولة الشام ٠ وهذه الاملاك كثيرة ومنتشرة في شرقي حلب وجنوبيها وشرقي الحمراء وسلمية وحمص تعد نحو ثمانمائة قرية وضيعة يقطن ما كان منها في الشمال حول حلب والحمراء أعراب من قبائل وأفخاذ شتى تركوا سكنى المضارب وبنوا القباب وانصرفوا الى الحرث والزرع ويقطن ما كان منها في الجنوب شرقي سلمية وحمص قليل من الاسماعيلية وكثير من النصيرية ٠ وقد كانت هذه القرى والضياع في زمن هذا السلطان عزيزة الجانب ينعم فلاحوها باحسن أمن وأجمل رعاية لانه منع عنها عيث البادية بفضل الثكنات والمخافر التي وضعها على حدود الحاضرة — كثكنة الحمراء وثكنة جب الجراح في سفح جبل الشومرية شرقي حمص ومخافر سمن الشجرة وتل الأغر وعقيربات السويد والفرقلس والمخزم — واعفى فلاحيه من الجندية والتكاليف الاميرية فعمرت اذذاك هذه القرى والضياع بعد ان ظلت خراباً بضعة قرون ٠ وما ان خلع هذا السلطان حتى زالت تلك الرعاية الا قليلاً ، ولما تقلص ظل الدولة العثمانية من ربوع الشام ٠ ونشبت فتن قبيلتي الموالي والحديديين خربت ضياع الحمراء وجلها مما يقطنه فنود هاتين القبيلتين وما ان بعطلها ويرجع الجفال الى

مواطنهم ومزارعهم ويعمروها حتى تنشب الفتنة ثانية فتعود للخراب وهكذا دواليك .

وفي القسم السالم من ثكنة الحمراء أقاموا في يومنـا مخفراً فيه بضعة جنود من الدرك يعززونهم بقوة كافيـة عند اللزوم ، وثمة حوش شبه الحظيرة لرجل حموي يستغل قسماً من مرج الحمراء بالحرث والزرع ويعمل مثله فلاحو قريتي الحمراء ورأس عين الحمراء المجاورتين .

وبعد مغادرة ثكنة الحمراء يتجه السائر نحو الشمال الشرقي فيرى على يمينه من الضياع اللالا وجناة الصوارنة وأصل أهلها من صوران التي تقدم ذكرها في بحث طريق شيزر وحماة ، والشيحاو وعلى يساره تل محصر ومويلح الصوارنة وابوعجوة فقصر ابن وردان الواقف وسط هذه البراري الشاسعة كأنه رمز العظمة والخلود .

لما تسنى لي زيارة هذا القصر وخربة الأندرين في خريف سنة ١٣٤٥ ورجعت الى دمشق أنقب في كتبنا العربية لعلي أجد ذكراً لهما لم أعثر الا على بضعة أسطر عن الاندرين قالها ياقوت في معجمه سأنقلها في موضعها . اما قصر ابن وردان فلم يذكره ياقوت ولاغيره فاضطررت اذ ذاك لسؤال المرحوم الأب لويس شيخو فأجابني في مجلة المشرق «عدد نيسان سنة ١٩٢٧» ان اول من وصف قصر بن وردان الاستاذ موردتمان في المجلة الاثرية الكتابية الالمانية المطبوعة في النمسا سنة ١٨٨٤ ثم عاد بعده غيره من السياح كاوستروب وهرتمان وفون اوبنهايم وستريغوفسكي فوصفوه ونشروا صوره . على ان هـذا الوصف قد جاء واسعاً مستوفى مع نقوش وتصاوير بديعة في منشورات البعثة الاميركانية في جامعة برنستون بالانكليزية في القسم الثاني المطبوع في ليدن في هولاندة سنة ١٩٢٠ ص ٢٥ ـ ٤٥ ووصف خربة الأندرين في الكتاب المذكور ص ٤٧ ـ ٦٣ اهـ . قلت لم أتمكن من الاطلاع على المجلة والمنشورات التي ذكرها الأب شيخو ولعل الخلاصة الموجودة في الدليل الازرق لمونمارشه مأخوذة عنها فجعلتها عمدتي في بيان ما يلي :

يتألف هذا القصر من ثلاثة أبنية لاتماثل قط بقية المباني التاريخية في بلاد الشام ، وتعزى مكانتها على ماقاله الاثريون الى ان بناءها وخاصة امتزاج الاحجار والواح الآجر يختلف عن الطراز المعروف في فن البناء السوري ويقترب من طراز المباني الملوكية في

القسطنطينية في عهد يوستنيانوس[1] ويرجحون ان بانيها المهندس ايزيدور ، وشبه دوسو هذه الابنية من حيث التركيب ومزج المواد لما في قصر المشتى في شرقي الاردن .

والابنية الثلاثة تشمل كنيسة كبيرة ثم قصراً عظيماً وكان كلاهما حينما زرتها سالماً بعض السلامة ، وثمة بناء عسكري واسع خراب بالمرة ولعله كان ثكنة . وأجل هذه الابنية القصر وهو واسع الأركان ذو طابقين عاليين في الاول منهما أروقة طويلة كل منها مؤلف من صفين من الغرف يتصل بعضها ببعض . وقد شيد هذا القصر ومثله بقية المباني بالاحجار الحرّية السود وبالواح من الآجر كبيرة صفراء غاية في الصلابة والجودة ودعمت بملاط قوي . وثمة أحجار جيرية بيضاء واعمدة من الرخام بنيت بها الاقسام الداخلية وعلى أسكفة احد أبواب القصر كتابة يونانية تاريخها ٥٦١ ميلادية وأخرى في موضع ثان تاريخها ٥٦٤ في عهد الامبراطور يوستنيان . وقد تداعى معظم جدران الطابقين والاقسام الداخلية وتقضت الاحجار والاعمدة ولم يبق في الطابقين سالماً الا الواجهة الجنوبية وبعض الابهاء ذات القباب وبعض النوافذ وبقي في الواجهة الغربية قسم من القباب وعضادتان مخمتان احداهما مزدوجة . فالقصر في الجملة أخنى عليه الذي أخنى على لبد . اما الكنيسة فقد كانت ذات بناء عظيم له ايقونستاس وهو رواق فوقاني ذو ثلاث قناطر يشرف على

(١) دام حكم هذا الامبراطور من سنة ٥٢٧ الى ٥٦٥ م وكان كثير السهر شديد الريبة من حاشيته ، فتح فتوحات عظيمة وأخضع ممالك الشرق والغرب التي كانت على وشك الانفصال عن بلاده وأعاد مجد الرومان ، وكان يقدر العدل والنظام ، أمر بجمع زبدة الشرائع الرومانية السابقة وحشرها في قانون واحد دعاه باسمه ، وكان عمرانياً شيّد كثيراً من الحصون وقناطر الماء والحمامات والمستشفيات والديارات والكنائس والقصور الفخمة ، أجلها وأعظمها كنيسة أياصوفيا في القسطنطينية ، بناها له المهندسان الآسياويان ايزيدور وآنثيموس ، (وفي الشام ينسب اليه قصر ابن وردان ودير سيدة صيدنايا ولعله بنى غيرهما ايضاً) ، الا ان تلك الحروب العظيمة والمباني الجسيمة أثقلت كاهل الشعب الروماني وأضنته ولما مات يوستنيانوس لم يؤسف عليه ، وسع بلاده وعمرها لكنه ابتز ضرعها وغادرها فقيرة بالانفس والاموال . (عن تاريخ العصور الوسطى لماله وايساق الافرنسيين) .

داخلها . وكان على الكنيسة قبة عالية ركبت على قناطر تستند على دعائم ضخمة ولا تزال بعض جدران طابقها التحتاني والايقونستاس الفوقاني وقسم من نصف القبة وقنطرتها الكبرى مائلة وصحن الكنيسة متطاول ينتهي بحنية مدورة وثمة صحون تالية تمتد في كل جانب . والثكنة التي غرب معظمها ذات شكل مستطيل وكان لها سوران بينهما غرف ذات قبب ، وفي داخلها فناء رحب في وسطه بناء عال ذو طابقين وقبب عديدة . ولا يمكن الزائر ان يميز في هذه الثكنة الا باب مدخلها الكبير وهو في شاليها وعلى اسكفته كتابة كبيرة والزاوية الشمالية الشرقية للسور الخارجي وبضعة أقسام من البناء المتوسط .

ومن الغريب ان هذا القصر الفخم المبني قبل الاسلام لم يذكره احد من جغرافيي العرب ولا ياقوت الذي ذكر قصوراً عديدة أقل منه شأناً لذا فقد غمض علينا معرفة ابن وردان الذي نسب اليه هذا القصر وفي اي عهد كان ومن رفه فيه وبذخ ثم متى وكيف بدأ خرابه وقد قيل ان معظم ذلك حدث في عهد السلطان عبد الحميد حينما أمر بانشاء ثكنة الحمراء فنقلت الجنود احجاره اليها ثم أجهز الجوار على ما بقي حتى أصبح على ما وصفناه وهم ما زالوا على هذا الاجهاز دائبين ويا للأسف . ومن الغريب ايضاً ان عمال يوستنيانوس الذين بنوا هذا القصر وتوابعه كيف انتقوا هذه الاماكن النائية عن حماة نحو ٦٠ وعن سلمية ٤٦ كيلومتراً وعنوا بحسن هندستها وزخرفها أكان ذلك لجمال هذه البراري وهي في يومنا أشبه بالفلوات خلوها من الخضار والأشجار قل ان استتب فيها الأمن في العصور الغابرة ان غاب سنتين او ثلاث بارت سنين وما زال هذا شأنها حتى يومنا الا قليلاً — أم لعمران القرى التي حولها وكلها الآن ضياع حقيرة لا تدل رسومها وآثارها على انها كانت من الكبر بحيث تستحق وجود مثل هذا القصر ومشتملاته ؟ هذا وعلى مقربة من القصر ضويعة ذات قباب يعمل أصحابها على إخراج قناة قديمة في أراضيها وثمة في الاطراف من الضياع الصغيرة رسم الورد ورسم عيزى وابو خنادق وابو عجوة والشيحاو العطشانة والمنطار وخربتي المعيطبة والثروث .

والسائر من قصر ابن وردان الى الأندرين يجتاز نحو الشمال الشرقي ٢٥ كيلومتراً جلها منبسطات محصاة وتلعات يكثر فيها الشيح والقيصوم والرونة وغيرها من نباتات البادية

ويتخللها أودية فيها زروع ضئيلة قليلة المساحة لبعد هذه الربوع وضعف زراعيهـا وهم من صعاليك العربان الحاضرة ، ويرى السائر في طريقه خرائب ورسوماً لايحوى جلها الاقليلاً من الخيم او القباب منها على اليمين رسم الورد وعلى الشمال رسم عيزي والخطابيـة وا لجنينة والحنية وتفاحة وحومى الى ان يوافي الاندرين . تقع هذه البلدة الخراب وسط برية منبسطة شاسعة يحدها شمالاً جبل الاحص الممتد جنوبي حلب وـفي سفحه الجنوبي الشرقي قرية خناصرة التي كانت مصيف الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز وغربا ممالح وبطائح تمتد الى قرية خرايج الشحم وشرقاً البادية المترامية الأطراف نحو دير الزور وما وراءه وجنوبا السباسب التي تنتهي عند أرياف قصر ابن وردان وسعن وسعين او سعن الشعيرة وبغيدبد وهذه ورد اسمها في صبح الاعشى للقلقشندي في ذكر طريق جعبر ، وفي معجم ياقوت وقد عدها من قرى حلب .

واليك ماقاله ياقوت عن الأندرين : أندرين اسم قرية في جنوبي حلب بينها مسيرة يوم للراكب في طرف البرية ليس بعدها عمارة وهي الآن خراب ليس بها الا بقية الجدران واياها عني عمرو بن كلثوم بقوله :

الا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا

وهذا مما لا شك فيه . وقد سألت عنه اهل المعرفة من اهل حلب فكل وافق عليـه وقد تكلف جماعة اللغويين لما لم يعرفوا حقيقة اسم هذه القرية والجأتهم الحيرة الى ان شرحوا هذه اللفظة من هـذا البيت بضروب من الشرح ... الخ اه . قلت وقد أتيح لي في خريف سنة ١٣٤٥ زيارة هذه البلدة البيزنطية التي ما برحت خراباً يباباً منذ الفتح الاسلامي على مايظن وتجولت بين كنائسها السبع وأطلالها ورسومها التي مابرح بعضها ماثلاً وبعضها هدم وأصبح ركاماً أو طمر تحت الرمال السافيات . ولما لم أجد في كتبنا العربية بحثاً عن الاندرين سوى ما نقلته آنفاً عن ياقوت وهو لا ينقع غلة من الناحية الاثرية رجعت الى كتب مستشرقي الافرنج فوجدت موغارشه في دليله الازرق يقول :

الاندرين وكان اسمها قديماً Androna بليدة تمتد أحياؤها ومبانيها في ساحة كبيرة لم يبق منها الآن سوى الانقاض المركومة والاطلال المهدومة وجلهـا من الحجر الحري

وبعضها من الآجر المشوي . وهذه الأنقاض والأطلال تدل على ان الاندرين كانت بليدةً بيزنطيةً مسورة لاتزال خطط‍ها ماثلة كما كانت حينما هجرها قطانها في عهد نظنه عهد الفتح العربي . وحينما يقترب السائح من هذه البليدة يرى أبنيةً تشبه الابراج شيدت بالحجارة الحرية السود تظهر منفردةً أو مجتمعة في أحياء مختلفة ، وكانت هذه الأبراج في زوايا جدران المباني العظيمة التي أضحت أنقاضاً مركومة . اما المباني التي لاتزال أنقاضها كثيرة فهي الشكنات وهذه جدران طوابقها السفلى ما برحت قائمة على انهـا مدفونة تحت أنقاض الطوابق العليا ثم كنيسة عظيمة ولعلها الكاتدرائية ثم كنيسة في جنوبي البلدة يحيط بها جدار ثخين ثم خزان ماء جسيم . ولايزال ثمة كميات عظيمة من أنقاض المباني التي شيدت بالآجر المشوي يصعب البحث عنها وهناك كنيستان متجاورتان مخصصتان الى الملائكة العلويين وأخرى قرب الجدار الشرقي وواحدة أصغر في الجنوب الشرقي من الشكنات ومذبحان احدهما مربع الشكل كان له قبة والثاني كان مستطيلاً ، وتجاه الشكنات بناآن لم يشيدا على مخططات منتظمة احدهما تظهر فيه غرفة مدورة وأخرى متطاولة منتهاها على شكل نصف دائرة مما يدل على انه كان حماماً . وثمة كثير من الخرائب وأنقاض الدور الخاصة كان معظمها على ما يظهر مبنياً حول فناء رحب ، وفي بعض هذه الأفنية أحواض محفورة . وثمة ايضاً طريقان احدهما من الشمال الى الجنوب والثاني من الشرق الى الغرب كانا يتقاطعان في منتصف هذه البلدة . وسور الاندرين لايزال سالماً في كثير من الاماكن وتظهر منه أبراج مربعة عادية وأبراج مزواة . والسور مبني بالحجارة ضخمة مستطيلة الشكل وقد دعموه بعضائد في كل ٣ — ٤ أمتار .

والشكنات تؤلف في وسط المدينة بناء مربع الشكل يبلغ طول احدى واجهاته ثمانين متراً تنم هيأته على انه مكان عسكري . ولهذا البناء مدخل واحد في الجهة الغربية وأبراج مزواة سداسية الاضلاع وأخرى مربعة في وسط الجهات الشمالية والغربية . وفي وسط الفناء الواسع في هذه الشكنة شيدت كنيسة ابعادها ٢٠ × ١٥ متراً . والكاتدرائية وهي كنيسة الاندرين العظمى موجودة في الجهة الجنوبية الغربية من الشكنة قرب المصلبة التي يلتقي فيها الشارعان الكبيران ، وأنقاضها الباقية تجعلنا نضعها في مصاف النماذج المدرسية

للكنائس العظمى ، لها صحن متوسط عظيم منفصل عن الاجنحة الجانبية بثلاث أقواس محمولة على عضادات متطاولة . والحنية ذات خمس نوافذ وقد هدم معظمها ولم يبق منها الا جدار الشامة وجداران آخران مع قسم من الصحن المخفي الذي كان يتبعها . وأكثر مباني الاندرين سلامة هي الكنيسة الجنوبية كان كلها مبنياً بالحجارة الا سقفها فمن الخشب، وما خلا ذلك كان حول الكنيسة سور خاص مبني بالحجر مع دعائم وأبراج مما يدل على انها كانت كنيسة محصنة مشيدة وسط البلدة . ومرتسم هذه الكنيسة يشبه الكاتدرائية لولا ان انحناء الحنية لايمكن ان يرى من الخارج وليس فيه سوى ثلاث نوافذ . ولاتزال الحنية قائمة مع الغرف الجانبية حتى الطابق الاول وكذلك دعائمها ، ولكن نصف القبة قد زال بالكلية ، اما القسم الاعظم من الجدار الشمالي فلايزال سالماً وكذلك قسم من الجنوبي والزوايا الغربية للصحن . والدعائم المتصالبة في المنتهى الغربي لهذه الكنيسة محفوظة لكن الجدار والابراج الغربية خربت بالكلية ، وقد بنوا تجاه الغرفة الجانبية الشمالية بناء لا يزال سالماً يظهر انه كان ضريحاً وخارج الكنيسة مستطيل اما داخلها فعلى شكل الصليب .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وفي جنوبي الاندرين وخارج أسوارها خزان ماء مربع الشكل طول كل ضلع فيه ٦١ متراً مبني باحجار الجير بعضها ذو نقوش ورسوم رومانية ، وعمق الخزان لا يربو على خمسة الامتار ولعله كان يبلغ السبعة ابان مجده ، والقسم الأعلى من الكورنيش يؤلف ممشى عريضاً يدور حول الخزان كله وفي خارجه صف من الاحجار الضخمة مربعة الشكل جعلت لمنع مياه السيول من النفوذ الى الخزان اه . قلت ويصل الماء الى هذا الخزان من قناة عظمى قسمها القريب من الخزان ستر باحجار منحوتة ضخمة وهي تأتي من الجنوب الشرقي من أراضي رسم يدعى أم أميال الشرقي عمرته من عهد قريب جالية من اسماعيلية القدموس وتتصل هذه القناة بأخرى ترد من ارض رسم آخر يدعى ابو الغر يقع في شمالي سعن وسعين وربما بلغ طول القناة الاولى عشرة كيلومترات وفي شمالي الاندرين الى الغرب خزان ثان لم يذكره موبمارشه تصل اليه الماء من قناة آتية من رسم المقطع الواقع في جنوبي الاندرين للغرب وتتصل هذه ايضاً باخرى ترد من الغرب الى ضيعة تدعى التفاحة

وربما زاد طول القناتين على سبعة الكيلومترات .

والاندرين تتبع ناحية سميت باسمها من أعمال قضاء معرة النعمان المرتبط بولاية حلب . وقد كان احد الحلبيين أحيى قبل الحرب العامة قسماً من ارضها الموات وبنى في شمالي الخربة حوشاً فيه قباب عديدة وشرع بالاستثمار الا ان شدائد تلك الحرب الطاحنة وكثرة مرور غزاة البادية من هذه الربوع النائية اضطرته الى ترك العمل . وفي سنة ١٣٤٦ جاء أناس من نصيرية جبال اللاذقية وشرعوا باستثمار ارض الاندرين وفتح قنواتها وتنظيف دورها الخربة وتكبدوا اتعاباً وتنفقات جمة الا ان جشع ورثة ذلك الحلبي وتوالي سني المحل وفقدان المعونة فت في عضدهم فعادوا أدراجهم وهكذا ضاع الامل برجوع العمران الى هذه البلدة التي لا برحت منذ اربعة عشر قرناً خاوية على عروشها ولا يعلم الا الله ما اذا كان يرجع اليها في المستقبل .

ويظهر انه كان في الاندرين كروم واسعة جيدة تنتج خموراً طيبة مشعشعة تحمل الى الاقطار البعيدة ومنها الحجاز فيتغنى بها شعراؤه أمثال عمرو بن كلثوم في معلقته . ولاغرو فارض الاندرين المستوية الرملية المكتسبة الصفراء صالحة لانبات الكروم وغيرها اذا توفرت لها مياه الري في مستهل حياتها او جاءها في كل عام مطر يزيد مجموعه على ما يهطل في عهدنا في هذه البراري النائية . فهل كانت هذه الشروط متوفرة حينما دعا العمران ورغد العيش لاشادة تلك الكنائس والثكنات والحمامات والابراج والقصور والدور والخزانات والقنى . . . واين غاضت تلك المياه وكيف قل تهطال الامطار ? أيكفي استئصال الحراج وتجريد الجبال من نضرتها لحدوث هذا الشح في سماء الشام وتوالي اعوام المحل التي صرنا نشهدها في عهدنا ? تلك اسئلة تحتاج الى كثير من التفكير لايتسع المجال لخوضها .

ومن الغريب ان يخلط البستاني صاحب دائرة المعارف بين هذه الاندرين التي حقق ياقوت موقعها بجلاء وبين اندرين أخرى خارج حدود الشام الشمالية كانت في عهد الترك مركز قضاء يتبع ولاية حلب وبقيت الآن في حوزتهم وان ينسب بيت عمرو بن كلثوم اليها .

ومما يجدر ذكره حول الاندرين اسرية — بكسر الالف والسين — وهي تبعد عن

الاندرين الى الشرق نحو ٣٥ كيلو متراً . وهي ايضاً قرية خراب ذكرها ياقوت انها «موضع بين خناصرة وسلية وتسميه العامة سورية» وصوابه ان يقول اسرية وقد أخطأ ايضاً بظنه ان اسم سورية الذي كان يطلقه الروم على بلاد الشام خاص بهذه الخرية . وفي اسرية آبار يرتادها العربان في تشريقهم وتغريبهم واطلال لا يستهان بها وصفها مونمارشه في الدليل الازرق قائلاً : اسرية واسمها القديم (Seriane) تشرف على الطريق الآخذة من الرصافة الى سلية . وليس ادل على مقدرة البشر على عمران بادية الشام من وجود المعبد الروماني الجميل الموجود بين خرائب اسرية . فقد قام هـذا المعبد فوق نشز طمرت تحته الانقاض المركومة لهـذه البلدة ، ففي جداره الشرقي باب عريض عال غاية في الزخرف له افريز ذو زهور وزوافر على طرفي الاسكفة وفوق الباب قوس واسعة وهي مزخرفة ايضاً . وفي كل من اطراف المدخل بناء مربع يشبه البرج ، فالذي على اليمين يحوي درجاً حلزونياً يصل الى سقف المعبد ، والجدران الجانبية القوية في المعبد دعمت في الخارج بعضائد . وطراز هذه المباني وزخارفها تدل على انها بنيت في القرن الثالث للميلاد ايام كانت بعلبك في سؤددها اه . وثمة في شمالي اسرية بينها وبين جبل الشُبيث الذي يناوح جبل الاحص عين تدعى عين الزرقاء وبالقرب منها الحمام ، وقد ذكرهما ياقوت قائلاً : الزرقاء بين خناصرة وسورية (وصوابه ان يقول اسرية ولعل ذلك من خطأ النساخ) من اعمال حلب وسلية وهي ركية عظيمة اذا وردها جميع العرب كفتهم وبالقرب منها موضع يقال له الحمام وهي حمة حارة الماء اه .

« للبحث صلة » وصفي زكريا

جامع التواريخ

— أو —

« نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة »

— ٩ —

حدثني ابي قال كان اول شيء قلدته القضاء بعسكر مكرم وتستر وجنديسابور والسوس واعمال ذلك من قبل القاضي ابي جعفر احمد بن اسحاق بن البهلول التنوخي وكنت في السنة الثانية (١) والثلاثين من عمري وذلك في شهور احدى عشرة وثلاثمائة لان مولدي في ذي الحجة من سنة ثمان وسبعين ومائتين فلما سلم الي ابي جعفر العهد وصاني بتقوى الله عز وجل وباشياء من امور العمل وسياسة في الدنيا والدين وبامر جاريه ينجزه من العامل هناك لانه كان مسبباً عليه فودعته ونهضت ٠ فقال اجلس فقد أنسيت مهماً فجلست فقال انك شاب وفضلك تام وعملك وافر وانك سترد على قوم فيهم شر وسيحسدونك على فضلك أو يطلبون معايبك اذا حكمت عليهم بالحق فلا يجدوا طريقاً الى الغض منك الا بنسبتك الى الحداثة وقلة حنكتها ولن تعدم منهم ذلك فان صدقت تحققوا ما يريدون والكذب لا يجوز فاياك

(١) الصواب : الثالثة ٠

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ان تخبر بسنك على حقيقتها ولكن اذا سئلت عنها فقل دون الاربعين سنة فلو كانت عشرين أو أقل لكنت صادقاً في فرعك الى الاربعين ستر (١) عليك لانها الاشد(٢) وحد المتكهل والحنكة فان بليت بمن يطول معك فيقول دون الاربعين بكم ؟ فقل لست اذكر وابق (٣) انك ليس تخبر ليقطع الخطاب (٤) ويقع للسائل انك تامن (٥) حقيقة سنك قال فخرجت ·واتفق ان شعرة واحدة ابيضت في لحيتي في مسافة الطريق فلما دخلت الأهواز تمحلت لاخراجها بالمشط الى حيث يلحقها النظر تجملاً بها واستقبلني محمد بن جعفر ابن معدان الشاهد وكان يخلف ابا جعفر على الوقوف وقد كاتبه باعظامي وتلقيّ فجاءني بمركوب الى الشط وركبته الى دار اتخذت لي وكان يغشاني في كل يوم فلما أردت الخروج الى عملي قال لي قد هالني ما رأيته من فضل القاضي أيده الله فكم سنوه فذكرت وصية ابي (٦) فقلت دون الاربعين سنة فقال دونها بكم فقلت لست اذكر فلم يشك اني ناس لتحققها فأمسك عني وهذا ضد ما نشاهده الآن · فاني قد رأيت ببغداد قاضيين هاشميين خطيبين شاهدين احدهما أجل وأنبه واليهما (٧) أعمال جليلة واحدهما قد تقلد من جهة الخليفة جلائل الاعمال ووهّل (٨) نفسه لقضاء القضاة وخطب ذلك فما تم له وهما يخضبان لحيتيهما ظاهراً بالسواد واحدهما ترك ذلك قبل موته بسنين وهو

(١) لعله : فرعك الى الاربعين ستراً عليك ·
(٢) راجع كتاب الاضداد لمحمد بن بشار الانباري ص١٤٤ (طبع ليدن) ·
(٣) لعله سقط : على · (٤) الاصل : الحساب · (٥) كذا بالاصل : والصواب ناس · (٦) الصواب : ابي جعفر · (٧) لعل الصواب : اليه (٨) يريد : أهّل ·

الادون محلاً والآخر باقٍ مقيم على الخضاب الى الآن ونسأل الله ستراً جميلاً فان الخضاب وان كانت فيه روايات فانما يعذر فيه الجندوالكتاب ومن لا يتصدى للحكم والشهادة فاما من نصب نفسه فلا عذر له فيه .

* * *

حدثني ابو القاسم عبد الرحيم بن جعفر الفقيه المعروف بابن السماك السيرافي قال كنت بحضرة ابي بكر احمد بن علي بن شاهويه القاضي بارّجان فتقدم اليه نفسان ادّعى احدهما على الآخر الف درهم فسأله فأنكر فقال المدعي لك بينة فقال لا ولكن استحلفه لي فقال للمدعى عليه أتحلف ؟ قال فقد كان قدمني الى القاضي الذي كان قبلك واستحلفني له على هذه الدراهم فقال للمدعي ماتقول فقال نعم قد كان حلف لي كاذباً فقال انصرف فلا مطالبة لك عليه فانصرفا ثم التفت اليّ والى ابي الوعد الفقيه على مذهبنا وجماعة من الفقهاء كانوا قعوداً يعني مذهب ابي حنيفة (١) والجماعة حنفيون فقال أرأيتم ان ادعى هذا المدعي الألف انه قد حلفني (٢) المدعى عليه واني ماحلفته وأردنا ان نعرض اليمين عليه فذكر انه قد حلف على هذا المعنى ولم يزل ذلك يتردد بينهما في دعوى كل واحد على صاحبه كيف نفصل الحكم بينهما؟ قال ففكرنا جميعاً ساعة ثم جرى خوض لم يتقرر له معنى ولم يتضح لنا وجه الفتوى فقلت له ان رأى القاضي ان يذكر ماعنده فقال : حكى لنا القاضي ابو طاهر الدباس عن

(١) الصواب : على مذهبنا يعني مذهب ابي حنيفة وجماعة من الفقهاء الخ .
(٢) كذا بالاصل .

ابي حازم القاضي في هذه المسألة بعينها انه قال : للحاكم ان يستحلف الذي ادعيتُ عليه الالف في الابتداء ان هذا المدعي عليك الالف درهم لم يستحلفك عليها عند حاكم آخر .

***

سئل بعض غلمان ابي الحسن الكرخي عن الدليل على تحليل النبيذ التمري المعمول بالداذي الشديد المسكر فقال قد وجدت الله تعالى لما وعدنا بالجنة ووصفها لنا أباح لنا في الدنيا من جنس ما وعدنا به فيها وحلل لنا تأويلها (١) لنعرف بذلك فضل ما وعدنا به في الجنة ودوام ذلك وانقطاع هذا فلما وعدنا بالخمر في الجنة وقد حرمها علينا في الدنيا ولا طريق الى علم (٢) لنحرص على الاعمال التي توجب دخول الجنة وشربها فيها فوجب ان يبيح لنا في الدنيا شيئاً من جنسها كهذا نستدل به على طيبها فكان النبيذ .

وكان قد سئل عن مثل هذا مرة أخرى فقال : ان الله تعالى خلق المنثور الذي ليس بخيّري (٣) . والله لا يخلق ما لا فائدة فيه وليس فيما عدا الخيري من المنثور فائدة الا ان يشرب عليه النبيذ وكان يخرج هذا القول مخرج الجدل لمن يستضعفه ومخرج التزول (٤) مع أهل العلم . وأصحاب الحديث والحفاظ يقولون انه لم يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث في تحريم النبيذ ولا في تحليله فذهب ابو علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي في

(١) لم أجد لهذه الكلمة معنىً مناسباً . (٢) لعله سقط : فضلها .

(٣) الخيّري هو المنثور الاصفر . (٤) لعله الهزل .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

مسألة أملاها في تحليل النبيذ مشهورة الى ان الاصل في الاشياء انها على الإباحة الى ان يثبت حظرها فلما كان العقل لايدل على تحريم النبيذ ولم ينقطع العذر عن تحريمه(١) وجب ان يكون على الاصل في الإباحة ثم نصر ذلك باشياء أوردها واعترض أدلّة المحرّمين له وبيّن فسادها وأورد زيادات على نفسه وانفصل عنها بما يطول شرحه ويخرج عما نحن فيه ان أوردناه ·

***

حضرت مجلس ابي محمد المهلبي وكانت العامة ببغداد قد هاجت في بعض ايام وزارته وعظمت الفتنة وقبض على جماعة من العيارين وحملة السكاكين وجعلهم في زوارق مطبقة وحملهم الى بيروذ وحبسهم هناك فاستهانوا بالقصة وكثف أمرهم وكثر كلام القصّاص في الجوامع ورؤساء الصوفية فخاف على تجديد الفتنة فقبض على خلق منهم وحبسهم وأحضر ابالسائب القاضي(٢) القضاة اذذاك وجماعة من القضاة والشهود والفقهاء وكنت فيهم لمناظرتهم وأصحاب الشرط لتأمن مضرتهم اذا قامت الحجج عليهم فاتفق ان بدىء برجل من رؤساء الصوفية يعرف بابي اسحاق بن ثابت ينزل بباب الشام احد الربانين(٣) عند اصحابه فقال له بلغني انك تقول في دعائك «يا واحدي بالتحقيق ياجاري اللصيق» فمن لا يعلم ان الله لايجوز (ان) يوصف بانه لصيق على الحقيقة (فمن وصفه بذلك) فهو كافر لان الملاصقة من صفات الاجسام

(١) لعله : تحليله · (٢) كذا بالاصل ·

(٣) الصواب : الربانيين · وليراجع كشف المحجوب للهجويري ·

ARCHIVE http://archivebeta.Sakhrit.com

ومن جعل الله جسماً كفر فمن يكون محله في العلم هذا يتكلم على الناس وقل لي مامعنى مابلغني عنك انك تقول في جملة كلامك « أخذتني مني ولم تبقي عليّ فها انا بلا انا » حصلنا على انكم تهذوا(١) وتوهموا الناس على انكم ربانين وتستدعونهم بالجهالات الى الضلالات وتفتنون حضرة السلطان عليه . السياطَ ياغلام ، فلم يزل يسأل في أمره حتى كفّ عنه وكتب عليه ان لا يتكلم على الناس ولا يحلق حلقة .

***

كان يجيءُ بالبصرة الى معلمي معلم يكنى ابا الحسن وكنى نفسه بابي البيان فسمعت معلمي يعاتبه على ذلك ويقول ياهذا غيرت كنيتك وهي مقبولة وكنية امير المؤمنين؟ فقال له ياباجعفر كم رأيت في عمرك من كنيته ابو الحسن؟ قال لاأحصي، قال فهل رأيت ابا البيان غيري (قال لا) ، قال فخذ بيدك هذه واحدة من فضائلها ، ومن ذلك اني اشتهر بها ولا أشارك فيها ، ومن فضائلها يسقط عني التلقيب وان يشتغل الناس بها عما سوى ذلك من عيوبي .

ورأيته يوماً عند معلمي في مكتبي وقد حضر وقتاً كان المعلم يأخذ علينا(٢) الشعر وكان عادته ان يقيم الصبيان صفاً فيطالبهم بانشاد القصيدة فأقامهم في تلك العشية وقد حضر ابو البيان فقال له ياباجعفر ماهذا القريض؟ قال وكيف؟ قال ان لي عادة في سياسة الصبيان لأرخص لهم فيها . ان سألتني

(١) يظهر ان الوزير كلمهم بلغة العامة ولذلك لم نغير شيئاً من كلامه .

(٢) لعله سقط : فيه

علمتك إياها فقال افعل قال تقدّم الى صبيـانك يمتثلوا أمري لأُريك ذلك فقال لهم ابوجعفر انظروا مايأمركم به ابوالبيان فافعلوه · فأقبل عليهم يخاطبهم في كلامه فقال: لكم أقول أيها الصبيان · ولمن يجاور كم من الغلمان · الى حدود الأحداث والفتيان · اسمعوا وعوا فمن خالف بعد البرهان · أنزلت به غليظ الامتحان · تراصّوا في صفوفكم · والزقوا أقدامكم وأقيموا ألواحكم · واقبلوا عليَّ بالحاظكم · واحضروا فيما تنشـدون قلوبكم · وارفعوا أصواتكم · وقولوا قول صبي واحد :

(قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل)

وصاح بالشعر مطرّباً فما ملك الصبيان الضحك وضحك معلمي معهم فقال ياباجعفر التراب والجندل بفيك وعلى رأسك والويل والويح محيطان بك أنطمع ان تعلّهم بهذه الهيبة ؟ حقت بك اللعنة والخيبة · أسبابك أفسدت · أمن قدري بضحكك وضعت ؟ ام سترك عند هؤلاء الانكاد هتكت ؟ اشهد الله لا أكلمك او تعتذر · وأخذ ابوجعفر يداربه ويعتذر اليه حتى رضي لوقته وكان يقول الشعر وينشده اباجعفر دائماً وما حفظت منه شيئاً ولولا انهذه الألفـاظ تعاودناها في المكتب ونحن صبيان لم تعلق بحفظي فلما ترعرعت كتبتها في موضع وانسيتها ثم نقلتها منه الى هذا الموضع وبقيت عندي الى الآن ·

وسمعت وانا في الكتّاب انه جاء الى معلمي فاسلم اليه ابنـه فقال له لِمَ نقلته من عند المعلم الاول ؟ قال لانني جزت به يوماً والصبيان يتشاتمون وهو

لايمنعهم باكثر من ان يقول قيدوا الفاظكم خزى الله حرماتكم لاتتشاتمون يابني البُظر واذا هو ليس يمنعهم من سوء الأدب ويدخل في جملة المشتومين فنقلته ·

* * *

حدثني عبد الله بن عمر بن الحارث قال كان ابي يكتب الى(١) الرُق على اصل وقع اليه في ذلك وكان مما يكتبه رقية للمرأة اذا خافت ان تسقط ولدها وتعلّق في وسطها فلا تسقط · قال وجربنا عليه ذلك على طول السنين فلم يخطئ · يكتب بسم الله الرحمن الرحيم (ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا الآية) (وما قدروا الله حق قدره الآية) (ونفخ في الصور فصعق من في السموات والارض الا من شاء الله الى آخر السورة) (ومثلاً كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبةٍ الآية) قال وكان يكتب رقية الآبق ما رأيتها أخلفت وهي ان تأخذ رقاً فتكتب فيه بسم الله الرحمن الرحيم: (وذاالنون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه — الى ننجي المؤمنين · أو كظلماتٍ في بحرٍ لجيٍّ يغشاه موج الى آخر قوله تعالى فما له من نور · فساهم فكان من المدحضين · فالتقمه الحوتُ وهو مليم) أدركه بآيات الله يرده رب السماوات والارض فاجعل مابينهما أضيق على فلان — يعني الآبق — من مَسك جمَل حتى تمكن منه فانه من فضلك وعطائك · ويدفن الرق في عتبة باب · قال وكان يكتب للرعاف في ورقة ويعلقه على جبهة المرعوف · بسم الله الرحمن الرحيم: (وقيل

(١) لعله: آتي

يا أرضُ ابلعي ماءكِ ويا سماء أقلعي) الى قوله تعالى: (للقوم الظالمين. واذا ذكرتَ ربك في القرآن وحدَه وأوا على أدبارهم نفوراً) وكان يكتب للخُراج على ورقة سلق وتوضع على الخُراج (ما أصابك من حسنة فمن الله الآية).

«للبحث صلة»

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

آراء وافكار

اثنا عشر كوكباً

رأيت في المحاضرة التي القاها الاستاذ المغربي باسم (اثنا عشر كوكباً) مواضع للتعليق احببت ذكرها هنا قال :

الكوكب الخامس جوران الحلبية · والصواب كما هو في نسخة مخطوطة عندي من در الحبب لابن الحنبلي — بوران · وقد ذكر لها ابن الحنبلي بعد البيتين اللذين ذكرهما الاستاذ بيتين آخرين وهما :

فقدت اخي وكان اخي وظهري ... على الحدثان سهماً لأمري
فان عجزت عن الندب الغواني ... بعثت الدمع نظماً غير نثر

وقال قبل ذلك : ومن شعرها ترثي اخويها العفيف الحسين والمحب عبد الباسط :

يابين بالغت في الاشجان والمحن ... وجلت فينا بجد ليس بالحسن
اضرمت نار فؤادي والحشاء معاً ... أوليتني في الورى حزناً على حزن
اغلقت باب علوم ثم باب هدى ... أخذت مني محب الدين من وطني
قد مات في غربة والشام مسكنه ... ياليتني قبل ذا ادرجت في كفن
وقد فقدت عفيف الدين واأسفي ... فليت بعد عفيف الدين لم أكن
قد كان موت محب الدين نائبة ... واطول حزني لذاك المنظر الحسن

الى ان قالت :

واطول حزني وواوجدي وواأسفي ... فيم الاقامة بالشهباء لاسكني

ولعل هذه الأبيات لم يذكرها النجم الغزي في الكواكب السائرة ولذا لم ينقلها الاستاذ المغربي ·

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.co

وقال بعد ذلك الكوكب السابع فاطمة بنت قزيمان ٠ والصواب قريزان كما في التاريخ المتقدم وقوله كانت رئيسة للزاويتين العادلية والدجاجية الصواب الزجاجية بالزاي وهذه كانت مدرسة للشافعية وهي اول مدرسة بنيت في حلب وقد تكلمت عليها في تاريخي (اعلام النبلاء) وسميت بذلك لانها كانت في سوق الزجاجيين ٠

واتخذت هذه المدرسة خانًا يعرف بخان (ابن مطاف) وشهرته بين الناس بخان الطاف وهو في محلة الجلوم واذا دخلت الى هذا الخان ونظرت الى يمينك بعيدالباب تتراءى لك آثار المدرسة ٠

ثم قال الكوكب الثاني عشر هو عائشة الباعونية الدمشقية وقد ذكر فيها ان عائشة لما وصلت الى القاهرة مع ابي الثناء محمود انزلها في داره ثم قدمها الى شيخ الادب السيد الشريف العباسي فأعجب بها وبعث اليها بقصيدة من بديع نظمه فاجابته بقصيدة مطلعها وافت تترجم الخ البيت ٠

وهنا نكتة لطيفة لعل النجم الغزي اغفلها ولذا لم يذكرها الاستاذ المغربي وهي تستفاد من عبارة الحنبلي في در الحبب وهي ان السيدة المشار اليها لما مدحت ابا الثناء بقصيدة مطلعها :

روى البحر اخبار العطا عن نداكم — ونشر الصبا عن مستطاب ثناكم

عرضها على شيخ الادباء في زمانه وامام البلغاء في اوانه الحسيب النسيب الزين عبدالرحيم ابن عبدالرحمن العباسي القاهري احد شيوخنا بالاجازة فبعث اليها بقصيدة من بديع نظمه طالبًا ان تجيب في الحال بلسان الارتجال فأنشدت في الحال قاصدة للامتثال قصيدة مطلعها :

وافت تترجم عن حبر هو البحر — بديعة زانها مع حسنها الخفر

ثم بعث اليها اخرى ملغزًا فيها فقال :

قل لمن بالقريض بذ الفحولا — وانثنى عن قصورهم مستطيلا
وارانا عرائس الشعر تجلى — بمعان اضحى علاها جليلا
رافلات من زاهيات المعاني — في مروط تجر فيها الذيولا
مسفرات عن حسن معنى بديع — من سناه تبغي البدور الافولا

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وتود الرياض ان لو اعيرت … من الغانين وشيها اكليلا
كل طرف اذا تراجع منها … عاد من حسنه حسيراً كليلا
واذا ما ظبا اللواحظ غازلـ … ـن ظباها اولت شباها فلولا
ما اسم شيء حروفه عاطلات … وهو في الدهر لا يرى تعطيلا
ولع القلب دائماً بثلاث … فيه لم نستطع اليه وصولا
ولباقيه في الخواطر ود … لم تجد للسلو عنه سبيلا
واذا الحذف جال في طرفيه … رادف اسماً يجبوك منه جميلا
واذا ما استقل ثان بتاليه … حباه منه ثواباً جزيلا
واذا ما قلبته دون ترتيـ … ـب ترى سؤدداً وقدراً نبيلا
واذا ما اعتبرته دون قلب … لن يدانى مقامه تبجيلا
واذا ما عكست منه اخيراً … لثلاث وجدت دوحاً ظليلا
وهو وصف يخص من قد تعالى … عن زوال وان يلاقي مثيلا
واذا ما نقصته واحداً صا … ر لرتع الظليم شوطاً طويلا
مثل ماقي العلا تصور فرداً … من غدا بابه لعاف مقيلا
كاتب السر رقية الدهر تار … يخ المعالي من قد سما تفضيلا
ذو السجايا التي تريك المزايا … قد تعالت عن ان تعد عديلا
دام في ظل نعمة وشفاء … لا يرى الدهر عنها تحويلا

فأجابته بقولها :

ياحبيباً قد حاز مجداً اثيلا … ومختاراً بالمصطفى لن يحولا
واماماً فيما حوى لا يجارى … في علوم جرت له التفضيلا
جئتنا بالعجاب نظماً تحلى … من لآلي البديع عقداً جميلا
سافراً عن وجوه معجز لغز … كل فكر اضحى لديه كليلا
قد سمعنا وما سمعنا لمعنى … لغزك الفائق البديع مثيلا
وعلى كل حال فهو محو … د صفات مكملاً تكميلا
راقنا واسم كاتب السر فيه … زاده رونقاً فاضحى جميلا

ARCHIVE http://archivebeta.Sakhrit.com

سيداً كاملاً وجيهاً نبيهاً ... عالماً عاملاً عطوفاً وصولا
زاده الله رفعة وحباه ... من جميل الهبات حظاً جزيلا
وحمى ذاته وابقى بقاه ... في سرور ونعمة لن تزولا
ما سرت نسمة وفاح اريج ... وزها الروض بكرة واصيلا

ومدحها في قصيدة الجناب العالي عبد الرحيم العباسي فقال :

لهينك مجد الخ . ثم قال :

فياروضة العلم التي بان فضلها ... سقاك من الفيض البسيط مديد

هذا هو الصواب في الشطرة الثانية لا كما جاء في المحاضرة وهي فيه (وليس من الفضل السري مديد) وهذا لا معنى له ولا يلتئم مع ما قبله وما بعده فاجابته الباعونية تقول (تساميت مرمى فاللحاق بعيد) الخ الابيات التي اوردها له الاستاذ المغربي وبعدها :

فيا علماً في العلم اصبح مفرداً ... ومن هو في فن البديع وحيد
وفاني تأهيل لما لست اهله ... وقد شملتني بالوفاء سعود
تطولت احساناً بعز لو انجلت ... لحسان لم يبرح لهن يعيد
ولو ابصر المعمار ما قد تأسست ... عليه لأضحى للثناء يشيد
ولو شهد الوردي بهجة حسنها ... لشاهد عنها العجز وهو مجيد

هذا آخر ما أورده لها الحنبلي في تاريخه ولم يذكر تاريخ وفاتها وليس في ترجمتها فيه أكثر مما نقله الاستاذ المغربي عن الكواكب السائرة .

حلب : محمد راغب الطباخ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الدرر الكامنة
« في أعيان المائة الثامنة »

كتاب الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة هو لابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢هـ ١٤٤٨ م وقد أخذ المستشرق الالماني الاستاذ فريتس كرنكو — او سالم الكرنكوي كما يوقع على رسائله لي باللغة العربية — بطبعه في الهند .

وقد استعان الاستاذ على طبعه باصول اربعة مخطوطة لهذا الكتاب الأصل الاول نسخة قديمة له تشتمل على الجزء الاول بتمامه ومختصر الجزء الثاني[1] وقد كتب الأول في حياة المؤلف وفيه تصحيحات بخطه .

والأصل الثاني نسخة قديمة محفوظة في خزانة التحفة البريطانية في مجلدين هي الاصل الذي نسخت عنه نسخة دار الكتب المصرية .

والاصل الثالث نسخة مكتبة ثينا بالنمسة حديثة العهد كثيرة الخطأ .

والأصل الرابع نسخة في مجلدين في خزانة دار حكومة الهند تحتوي الجلد الاول من النسختين الاوليين وهذه ايضاً كثيرة الخطأ والمتتبع لهذه الاوصاف يرى ان هذه الأصول الاربعة فيها بعض النقص سواء بوجود اجزاء مختصرة بينها أو بكثرة اغلاطها .

وقد كان يجدر بالاستاذ الناشر ان يضيف الى الاصول المخطوطة نسخة المكتبة الظاهرية في دمشق لأن هذه النسخة على الرغم من اهمال نقطها ورداءة خطها هي من الاصول التي يصح الاستناد اليها فقد وصف الاستاذ محمد كرد علي في مجلته المقتبس[2] تلك النسخة ونقل عنها بعض التراجم وذكر انها بخط ابراهيم البقاعي المتوفى سنة ٨٨٥ هـ ١٤٨٠ م وهو من معاصري المؤلف ومن الثقات الذين يعول عليهم .

وذكر ذلك ايضاً في كتابه الممتع خطط الشام[3]

---

(١) في كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون طبع القسطنطينية جزء ١ ص ٤٨٩ ان جلال الدين السيوطي اختصر كتاب الدرر الكامنة فلعل هذا الجزء المختصر له .

(٢) مجلة المقتبس م ٥ ص ٦٢٦ .

(٣) خطط الشام ج ٦ ص ٢٠٧ .

ومما يهم الاطلاع عليه نقله عبارة البقاعي التي اختتم بها نسخته اذ قال :

« قلت وكانت كتابتي فيه للنسخة الاولى في ربيع الآخر سنة ٨٥٥ وعسرعلي قراءة كثير من النظم الذي في التراجم وغير ذلك ثم نقلته كذلك الى هنا والمرجو من فضل الله تعالى تحرير ذلك ومقابلته جميعه على الاصل المنقول منه ان تيسر أو يحرر ذلك من اصوله ان شاء الله تعالى وكان فراغي من هـذه في ١٧ شوال سنة ٨٥٩ بمنزلي بحارة بهاء الدين في القاهرة اه »

ورداءة خط النسخة الدمشقية خدعت بعض العلماء فظنوا انهـا نسخة المؤلف فقد ذكر الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف في مجلة المقتطف (١) ذلك كما ذكره لي الاستاذ سعيد الكرمي .

اما ذيل الدرر الكامنة الذي عرض بذكره المؤلف وقال انه ألحق فيه الى سنة ٨٣٧ ونقل عبارته الاستاذ كرنكو عن نسخة خزانة التحفة البريطانية فمسودته التي بخط المؤلف في الخزانة التيمورية التي اضيفت الى دار الكتب المصرية في القاهرة .

ومن هـذا الذيل نسخة في خزانة كتب شيخ الاسلام عارف حكمة في مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وانت ترى ان النسخة الدمشقية من الاصول التي تستحق الاهتمام لانها منسوخة بقلم احد معاصري المؤلف كما ان الذيل الموجود بالقاهرة هو مسودة المؤلف فلعل الناشر المجد العامل يحاول الانتفاع بهذين الاصلين لان الايدي لم تتداول الكتاب المطبوع الى الآن على الرغم من مباشرة طبعه منذ سنة ١٣٤٨ هـ ١٩٢٩ م .

عبد الله مخلص

---

(١) المقتطف م ٥٦ ص ٢١٢

مطبوعات حديثة

—«»—

كتاب الاكتفاء

« في مغازي المصطفى والثلاثة الخلفاء »

للامام ابي الربيع سليمان بن سالم المشهور بالكلاعي البلنسي المتوفى سنة ٦٣٤ هـ
الجزء الاول ص ٤٠٤ . طبع بعناية الشيخ هنري ماسه بمطبعة جول كربونل بالجزائر

طبعت كلية الادب بجامعة الجزائر بضعة مجلدات عربية قديمة فبعناية العلامة الشيخ محمد ابن ابي شنب نشرت ديوان علقمة بن عبده مع شرح الامام الشنتمري وديوان عروة بن الورد مع شرح ابن السكيت والجمل للزجاجي . وبعناية الشيخ هنري بيريس نشرت جزء بن ديوان كُثيّر عزة مع شرح مختار . وبعناية الاستاذ الشيخ هنري ماسه احيت اليوم هذا الكتاب الجليل وقد اعتمد في الطبع على نسختين في المكتبة الدولية بالجزائر وعارضه على نسختين نفيستين في بعض المكاتب الخصوصية وقدم له مقدمة بالعربية مع ترجمة المؤلف من مختلف المصادر . واعتمد المؤلف الاول في كتابه علَى الكتب المشهورة مثل سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد ولكنه نقل نقولاً كثيرة عن « مثل كتاب الواقدي و كتاب الزبير بن ابي بكر القاضي وتاريخ ابي بكر بن ابي خيثمة وميز رحمه الله بين الغث والسمين » واستوعب هـذا الجزء نسب رسول الله واولية بيت الله الحرام ومن تولى بناءه وعرض لذكر الحبشة ودخولهم اليمن وحفر عبد المطلب زمزم وبنيان قريش الكعبة مع ذكر ما احدثوه من المناسك وماحفظ عن الاحبار والرهبان والكهان من امر رسول الله ثم فصل في مبعثه وفي إسلام حمزة والهجرة الى الحبشة . وطريقة المؤلف في تأليفه كطريقة ابن سعد وابن هشام .

وهو من اكبر بلغاء الاندلس على ماتجلى في ترجمته ، ومن مطالعة كتابه المفيد جداً في بابه .
وقد عني زميلنا الناشر بتصحيحه حتى جاء من اهم المطبوعات التي عُني علماء المشرقيات باحيائها من كتبنا .
م ٠ ك

ضحى الاسلام

« تأليف السيد احمد امين الجزء الاول طبع لجنة التأليف والنشر بالقاهرة »
« سنة ١٣٥١ — ١٩٣٣ ص ٤٠٨ »

نشر الاستاذ صاحب هذا التأليف « فجر الاسلام » بالامس واليوم ينشر « ضحى الاسلام » وهو في الحياة الاجتماعية والثقافات المختلفة في العصر العباسي الاول اي الى خلافة الواثق وقدم له الاستاذ الدكتور طه حسين مقدمة أبانت الغرض منه ودلت على حسناته الكثيرة . وقد قارن فيه بين العهد الأموي والعهد العباسي في العلم وبحث في سكان المملكة الاسلامية وعناصرها ومزاياها واهوائها ومختلف آدابها ، وفي ميزات المولدين والتوليد العقلي والتوحيد بين العناصر والصراع بين العرب والموالي وتاريخ العصبيات والنزعات الشعوبية والرقيق وأثره ، وحياة اللهو وحياة الجد والترف وتاريخه والزهد واسبابه ، والزندقة والايمان ، والثقافة الفارسية وانتشارها في العرب والثقافة الهندية والثقافة اليونانية الرومانية ، ومادخل في المجتمع العربي من آثارها بواسطة الكتب المترجمة وغيرها وماصار اليه العرب بالثقافة العربية وادبها البدوي والحضري والجاهلي والاسلامي ، ومابقي من الثقافات الدينية اليهودية والنصرانية في المملكة الاسلامية ، وكيف امتزجت الثقافات ومن هم المقدمون من المؤلفين والكاتبين الذين يعزى اليهم الفضل الاول في هذا التطور .

هذه أمهات ابواب الكتاب . وقد جوّد المؤلف في كل بحث منه ، فكان اماماً في استقرائه واستنتاجه ، واماماً في جميل أسلوبه وحسن مأتاه . وقل جداً في تأليف المعاصرين ما كتب له الابقاء مع الاجادة الى هذا المدى البعيد . ذلك ان المؤلف قد خُصّ بالصبر على الاقتباس من مصنفات القدماء والمحدثين ، وعرف بالرفق في أحكامه على الموافق والمخالف ، وقلّ من يضبط نفسه مثله وندر من رزق مثله اعتدال دم عند مواجهة المصاعب

التاريخية والاجتماعية ٠ واذا قلنا ان ضحى الاسلام كفجر الاسلام لاعيب فيها من حيث الوضع وعموم النفع لانكون الى الغلو ٠ لاجرم ان جمهور المتأدبين سيقعون في كتابي الاستاذ احمد امين على أنفع تأليف جمع العلم القديم والأدب الجديد فعد من المبرزين بين حملة الاقلام في هذا الموضوع الطريف ٠

م ٠ ك

يقظة الاسلام والعرب

Eugène Jung : Le réveil de l'Islam et des Arabes 1933

مؤلف هذا الكتاب مشهور بابحاثه السياسية في الاسلام والمسلمين ، وهذا آخر كتبه تكلم فيه على المؤتمر الاسلامي ومقرراته في القدس وعلى المسلمين في شمالي افريقية وعلى المطامع الاستعمارية وعلى المشاكل التي عرضت للاستعمار وكاد يتأتى اتقاؤها لو جرى المستعمرون على قواعد الانصاف ٠ وللمؤلف صلات حب ووحدة فكر مع رجال الاسلام ولا سيما مع الاستاذين محمود بك سالم والامير شكيب ارسلان وقد استشهد باقوالها ودافع عن منازعها ومنازع زعماء المسلمين خير دفاع ، ومما قاله ان عدد المسلمين في اوربا يبلغ ثلاثين مليوناً منهم عشرون في روسيا الاوربية (٢٦ مليوناً في روسيا الآسيوية) ٠ ومليونان ونصف مليون في يوغوسلافيا ونصف مليون في بلغاريا و٩٠٠ الف في البانيا و١٠٠ الف في اليونان و٦٠٠ الف في رومانيا و٢٠ الفاً في بولونيا وليتوانيا و٥٠٠ الف في المجر أو هنغاريا ، ومما قاله وهو دليل على إعجابه بالمدنية الاسلامية ان العرب على ما يظهر جد محقوقين ان كانوا كلهم مسلمين الا قليلاً وبهذا السبب نالهم من الاضطهاد الحقيقي ظاهراً وباطناً ما نالهم ، على حين كان لهم ماضٍ يحق لهم ان يُعجبوا به : ماضٍ حربي اولاً ثم ماضٍ في العلم العالي والصنائع والرفاهية مما اتخذته اوربا في القرون الوسطى وكانت نصف متوحشة — دعامة لقيام المدنية الحديثة ٠ ولعله يقال ان الاوربيين لا يستطيعون ان يغفروا لاساتذتنا غلطهم فيما لقنوهم من المعارف ٠ وقال ايضاً : ليت شعري هل القوة الاجتماعية في الاسلام هي التي تُقلِقُ اوربا ودولها العظمى ؟ ربما كان ذلك لان تعاليم الاسلام حرة فهي لا تقول بالطبقات والامتيازات ولا تدعو الى الفتح على ما كان من

الكنائس النصرانية وليس في مطاويها شيء من الرياء السياسي الذي تنقاد اليه بعض الحكومات ، وشعار المسلمين الجميل تقريب القلوب والأرواح وهي مرحلة انتقال الى السلام العام وهذا ما يراد ولا شك انقضاء عليه وما مصير من يعمل ذلك الا الخيبة اه .

فنثني على المؤلف بما هو أهله لعلمه وتجاربه وجميل أدبه ولطيف نصحه لنفع الناس وأهل الاسلام وأهل المدنية الحديثة خاصة . م . ك

التربية عند العرب

« تأليف السيد خليل طوطح طبع في المطبعة التجارية بالقدس ص ١٧٥ »

المؤلف من رجال التربية والتعليم في فلسطين قسم كتابه الى فصول تكلم فيها على المدارس عند العرب فبدأ بنشأة القراءة والكتابة في الاسلام وتعليم القرآن والتعليم في العصرين الأموي والعباسي وأنواع المعاهد العلمية والكتاتيب والجوامع ومجالس العلم والأدب وبيوت الحكمة في بغداد والفسطاط . وفاته الكلام على دار العلم ودار الحكمة في طرابلس وقد جددها جلال الملك القاضي ابن عمار (٤٧٢ هـ) فنشرت العلوم والآداب وأصبحت بها طرابلس مباءة علم ودرس وجهز هذه الجامعة بمائة الف مجلد بحيث أصبحت الفيحاء أول بلدة علمية في الشام على ماقاله الاستاذ فان برشم (خطط الشام مجلد٤ ص٣٨) وتكلم على المدارس الجامعة كالنظامية في بغداد وزعم انها كانت لنشر مذهب السنة فقط ولم يتكلم على المستنصرية ، وأفاض في الكلام على مناهج التعليم والأوقاف والمعلمين وتراتيبهم وأساليب تدريسهم وفلسفة التربية عندهم وكتب التربية وعدد ماعرفه منها وأدمج فيها كتاب الدارس لابن جمي ومختصره للنعيمي وكان الأولى ان يعدا في كتب الخطط والبلدان وذكر عيوب التربية وحسناتها عند العرب وأورد قائمة غير تامة من أسماء المدارس في بغداد والقاهرة ودمشق والقدس وغيرها . ويا حبذا لو رجع الى ما نشرناه من أسمائها في الجزء السادس من خطط الشام فانها كانت أكثر تحقيقاً رجعنا في تصحيحها الى العارفين وأخذنا عن أمهات معتبرة فيها شيء كثير مما يدخل في تاريخ التربية العربية . والكتاب مكتوب بأسلوب طلي جلي رجع المؤلف في وضعه الى الأمهات العربية وبعض

المصادر الافرنجية . فله الشكر على هذه التحفة الأدبية ونهنئه بتوفيقه الى وضع ما وضع ونرجو له ان يظل يتحف العلم بهذه النفثات الطيبة .

م ٠ ك

منتهى آمال الخطباء

« تأليف الشيخ مصطفى أبوسيف الحمامي طبع بمصر سنة ١٣٥١ هـ »

هو ديوان خطب كبير ، مؤلف من نيف ومائتي خطبة مشكولة ، مشتمل على أكثر من خمسمائة صفحة ، استهله مؤلفه بمقدمة مفيدة في موضوعه ، ولكنه التزم السجع وراعى الفواصل في جميع خطبه ، فكل واحدة منهن مركبة من ثلاث فقرات متماثلة في الحرف الأخير ، والفقرة الرابعة لها فاصلة أخرى متماثلة في الحرف الأخير ايضاً ، على انه سليم من التصلف ، خال من التكرار في غير فائدة ، فهو من نوع السجع البديعي المقبول ، وخطبه جامعة بين القديم والحديث .

ولم يسلم هذا الديوان — على حسنه — من هنات رأينا ان نشير الى بعضها كقوله (ص٢) ليس فقط باللسان ، وكرر هذا الأسلوب ، وصوابه تأخير كلمة (فقط) فيها كلها . وكقوله (ص ١٠٤) : فضل الناس على بعضهم وكرر هذا التعبير ايضاً ، والصواب ان يقول : بعضهم على بعض وكذا الباقي .

ومن الهفوات الشديدة ماذكره في الخطبة (٦٧) من نداء الاولياء في الشدائد قال : « ولا لوم عليك اذا ناديت اي ولي عند حلول كارثة من كوارث الأزمان » وكان يجب على المؤلف ان يعمل بما أورده في ديوانه من حديث « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي » الخ . وقد تناظر الصحابة بعد وفاة النبي (ص) في أمر الخلافة وفي جمع القرآن ، وفي المعارك الدامية كوقعة الجمل وصفين والنهروان والحرة ، وتناظر الشيخان في قتال مانعي الزكاة وفي إرسال جيش أسامة ، ولم يستغيثوا به في هذه الشدائد ، ولا استغاثوه في شيء منها ، وكل هذا معلوم من الدين والتاريخ بالضرورة ، ومن العقل والحس والوجدان بالبداهة ، فيجب رد ما يتجدد من الوقائع والحوادث الى الوحي المنزل ، وما عرف من سنن الصدر الاول للاسلام .

محمد بهجة البيطار

http://Archivebeta.Sakhrit.com

هندسة العمارة

« للسيد عبد المنعم عرفة الجزء الاول طبع بالمطبعة العصرية بالقاهرة »

يغلب على الظن ان كتاب هندسة العمارة لمؤلفه الاستاذ عبد المنعم عرفة هو الاول من نوعه في اللغة العربية وقد قسمه الى اربعة أقسام عدد بصورة واضحة أنواع مواد البناء والصفات والمميزات التي يتطلبها الفن المعاري كما عدد الشرائط الواجب اتباعها في استعمال هذه المواد . وقد عين المؤلف في بحث تصميم الدور الحد الأدنى للأبعاد الممكنة للمنافع المنزلية كالمطبخ والحمامات الخ . . . وعني ايضاً بوضع بعض مصورات لمنازل متنوعة مؤلفة من دور الى ثلاثة أدوار ومنها (الفيلات) .

أما مايتعلق بالمواد الأولية فمنها ماهو عام مثل الاسمنت وغيره ومنها ماهو خاص بالقطر المصري مثل أحجار المقالع المصرية وكذلك الشرائط فهي الشرائط العامة المتبعة في بلديات أغلب الحكومات ووزاراتها وهو ما يدعونه (بدفتر الشروط Cahier des charges) اما المقاسات والابعاد فقد وضع لها المؤلف الحد الادنى المتبع في البلاد الاوربية وهذا قليل بالنسبة لبلاد كمصر والشام . اما مصورات تصميم البناء فهي من الطراز الاوربي الحديث في مقطعها الأفقي وفي واجهاتها وهذا الطراز يلاقي الآن في بلادنا رواجاً لا بأس به وكان من الأوفق ان يقدم لنا المؤلف في هذا الكتاب الوحيد في بابه (واجهات) من الطراز الشرقي ممزوجة بشيء من الطراز الحديث ليسعى لاحياء البناء الشرقي القديم وإعادة مجده الغابر .

دمشق : المهندس

مختار دياب